الجهادُ في فلسطين

هذه صَرخةُ قَلبٍ مَجروحٍ ، إنّه نداءٌ مِنْ أمٍّ مِن فلسطينَ ، تقول لِوَلدِها ، وهو فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ : يا بُنَيَّ ؛ الشهادةُ في سبيلِ اللهِ شَرَفٌ ، الشَّهادةُ في سبيلِ اللهِ وِسامٌ ، وأنَا اليومَ مَسْرُورةٌ بِكَ ، لأنَّني سأغدُو أُمَّ شَهيدٍ ، ثم تقول : أُناشِدُ أَخَوَاتِي الفلسطِينيَّاتِ أنْ يَقِفْنَ مِن وَرَاءِ أبنائِهِنَّ ، وأزواجِهِنَّ ، وإخوانِهِنَّ ، وآبائِهِنَّ يشارِكْنَهُم في الجهادِ بالصَّبْرِ ، والثباتِ ، وتربيةِ الأبناءِ على مَوَائِدِ القرآنِ ، ليس حِفْظاً فَحَسْبُ ، ولكنْ تَطْبيقاً ، وعَمَلاً ، وأنْ تُشرِقَ بالإيمانِ قلوبُهُمْ ، هذا الإيمانُ الذي سيدفعُهُم حتماً إلى مقارعةِ أعداءِ اللهِ ، فإذا غَرَسْنا بَذْرَةَ الخَيرِ في الطِّفلِ فَسَوْفَ يَعرِفُ ما له ، وما عليه ، وسَيَعْرِفُ كلَّ معانِي الخيرِ ، ويتعلَّقُ بها ، وليسَ لنا خيرٌ في هذه الدُّنيَا سوى دِينِنا ، الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِنا كلِّه ، وبَعْدَ ذلك لا يَصْعُبُ عليه شيءٌ ، وسَيَحْمِلُ سِلاَحَهُ ، ويَحمِي هذا الدينَ .

أناشدُكُنَّ يا أَخَوَاتِي ، يا نساءَ فِلسطينَ الصَّابراتِ الصَّامداتِ ، ألاَّ تَبْخَلْنَ على اللهِ بِفلذاتِ أَكْبَادِكُنَّ ، فو الذي نفسي بِيَدِهِ لله أَرْحَمُ منّا بِهِمْ ، فلا تَبْخَلْنَ على أبنائِكُنَّ بالجنّةِ ، التي وَعَدَهَا اللهُ للشهداءِ والمجاهدين ، فهذه فَرْحَتُنَا نحنُ ، وأبناؤُنا ، وإخوانُنا ، وأزواجُنا ، وآباؤُنا أنْ نفوزَ بإحْدَى الحُسْنَيَيْنِ .

ذَكَّرَتْنَا هذه الأمُّ بِتِلْكَ المَرْأَةِ التي دَخَلَتْ أُحُداً ، وهي تقولُ : « ما فُعِلَ برسولِ الله ؟ فَاسْتَقْبَلَهَا مَن يُخْبِرُهَا بِاسْتِشْهَادِ ولَدِها ، فتقولُ : ما فُعِلَ برسول الله ؟ مع أنّ فؤادَهَا ينبضُ أسًى وحزناً على ولدِها ، ولكنّ هدفَها وأَمَلَهَا وعُيونَها متعلقةٌ بالهدف الأسمَى ، ويأتيها آخرُ ليقولَ لها : لقد استُشْهِد زوجُكِ ، فتقول : ما فُعِلَ برسول الله ؟ وثالثٌ يقولُ لها : لقد استُشهِدَ أخوكِ ، وتجيبُ : ما فُعِلَ برسول الله ؟ وتأتي لتكحلَ عينَها برسول الله ﷺ ، وهو حيٌّ يرزق ، فتنظرُ إليه ، وتدمعُ عيناها ، إنها دموعُ الإيمانِ ، والوفاءِ لهذا الدِّينِ ، ولصَاحِبِ هذه الرسالةِ ، إنّها دموعُ الحُبِّ والتضحية ، تنظرُ إلى رسولِ اللهِ ، وتقولُ : كلُّ مصيبةٍ بعدكَ جَلَلٌ يا رسولَ اللهِ ، لا أُبَالِي إذَا سَلِمتَ بِمَنْ هَلَكَ »[1] .

ذَكَّرَتْنَا هَذِهِ المرأةُ بالخنساءِ ، التي استقبلتْ أربعَةً مِن أولادَها شُهداءَ ، فقالتْ كلِمتَها الرائعةَ الشهيرةَ : « الحمد لله الذي شَرَّفَنِي باستشهادِهم جميعاً ، وأرجو اللهَ أنْ يجمعني معهم في مستقرِّ رحمته » .

ذَكَّرَتْنَا هذه المرأة بأسماءَ بنتِ أبي بكر الصديقِ رضي الله عنهما ، حينما جاءَها ولدُها عبدُ الله بن الزبير يقول لها : « يا أُمَّاه لا أخافُ مِنَ القتل ، ولكنَّهم لُؤَمَاءُ ، فإنْ قَتَلُوني صَلَبوني ، فقالت : يا بُنَيَّ اذهبْ ، فإنَّ الشاةَ لا يَضُرُّها سلخُها بَعْدَ ذَّبحِها » .

بطولة أخرى .

زهرةٌ ندِيَّةٌ فوَّاحةٌ ، وغصنٌ بانٍ غضّ ، وقطرَةُ ندًى في فجرِ يوم

---

(١) انظر تاريخ الطبري (٢/ ٧٤) .

رَبِيعِيٌّ ، تربطُ الحزامَ الناسفَ على الخاصرةِ الفتيّةِ ، وتغطّيه بثوبِ الإباءِ ، ورفضِ الضَّيم ، وتنسلُّ مِن بَيْنِ طوابيرِ الجُفاةِ ، غِلاظِ الأكبادِ ، المُدَجَّجِينَ بالسلاحِ ، مِن مُجْرِمِي العدوِّ ، تنسلُّ مُوَدِّعَةً الأرضَ بأخمصِ قَدَمَيْها ، سائرةً وبكلِّ ثقةٍ إلى الموتِ والتمزيقِ ، رافضةً إتاحةَ الفرصةِ للعاطفةِ ، وللذِّكْرَياتِ ، ولِخَفَقَاتِ القلبِ أنْ تعبَثَ بخطواتِها المُتَرَوِّيَةِ ، السائرةِ إلى النهايةِ التي تقطعُها مِن كلِّ صِلَةٍ بهذا العيشِ ، وأمانِيه وأحلامِه ، وأمِّها وأبيها ، وإخوتِها ، وأخواتِها ، وصديقاتِها ، والحديقةِ ، واللعبةِ ، ضاربةً ، وفي آخر لحظة مثلاً يُحْتَذَى ، وقدوةً خالدةً ، قائلةً لأمِّها : غداً يأتِيكِ خطاب منِّي .

فإلى أصحابِ الزُّنودِ السُّمرِ ، والعضلاتِ المفتولةِ ، أليس عاراً وشناراً ، وفضيحةً ، وذبحاً للرُّجولةِ ؛ أنْ تنهضَ طفلة بريئةٌ وادعةٌ ، نظرتْ إلى الموقفِ بعَيْنٍ جَرَّدَتْهَا مِنْ كلِّ أنانيةٍ وطمعٍ ، فَقَدَّرَتْ أنّه لا بدّ مِن عملِ شيءٍ لِمَجْدَ هذه الأُمّةِ ودينِها ، وكأنّها تقولُ للكرامِ الأحرارِ ، العظماءِ مِن أبناء أمّتها : هذا هو لَحْمِي وَعَظْمِي ، وَعَصَبِي وَدَمِي ، وخَصَلاَتُ شَعْرِي ، أجعلُه لثاماً يغطّي وَجْهَ القاعدِينَ عَنِ البذلِ ، المُؤْثِرين للدَّعَةِ والرّاحةِ .

قال معاذُ بنُ عَفْرَاءَ : « يا رسول الله ، ما يُضْحِكُ الرَّبَّ مِن عَبْدِهِ ؟ قال : غَمْسُهُ يَدَهُ في العَدُوِّ حَاسِراً ، قال : فألقى دِرْعاً كانتْ عليهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ »[1] .

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٣) ، وتاريخ الطبري (٢/ ٣٣) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٧٥ـ١٧٦) .

عن أبي إسحاق السبيعي قال : سمعتُ رجلاً سألَ البراءَ بنَ عازبٍ : « أرأيتَ لو أنّ رجلاً حَمَلَ على الكَتِيبَةِ ، وهمْ أَلْفٌ ، أَلْقَى بِيَدِهِ إلى التَّهْلُكَة ؟ قال البراءُ : لا ، ولكنَّ التهلكةَ أنْ يصيبَ الرجلُ الذَّنْبَ فيلقي بِيَدِه إلى التهلكة ، ويقول : لا توبةَ لي »[١] .

« ولم يُنْكِرْ أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ ، ولا أبو موسَى الأشعريُّ أنْ يحملَ الرجلُ وَحْدَهُ على العسكرِ الجَرَّارِ ، ويَثْبُتَ حتى يُقْتَلَ »[٢] .

وقصة أبي أيوب في القسطنطينية معروفةٌ مشهورة ، فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ : « كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيماً مِنْ الرُّومِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ ، فَصَاحَ النَّاسُ ، وَقَالُوا : سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا ـ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ـ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلاَمَ ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ : إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا ، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا! فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ ، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ ،

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٥/ ٤٠٨) ، وفتح الباري (٨/ ١٥٨) .

(٢) المحلَّى لابن حزم (٧/ ٢٩٤) .

وَإِصْلاَحهَا ، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصاً فِي سَبِيلِ اللهِ ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ »[١] .

وفي بعضِ المصادرِ أنّ البراءَ بنَ مالكٍ أَمَرَ أصحابَه أنْ يحملوه على ترسٍ على أَسِنَّة رماحِهم ، ويُلقُوه في الحديقة ، فاقْتَحَمَ إليهم ، وشَدَّ عليهمْ ، وقاتَلَ حتى فَتَحَ بَابَ الحديقة ، وجُرِحَ يومئذٍ بضعةً وثمانينَ جُرْحاً .

وقد جاء في صحيحِ مسلمٍ من حديثِ صهيبٍ في قصةِ أصحابِ الأخدودِ ، قولُ الغلامَ للملِكِ : « إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللهِ ، رَبِّ الْغُلاَمِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللهِ ، رَبِّ الْغُلاَمِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَضَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ ، فَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلاَمِ ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ »[٢] .

فهذا الغلامُ قدْ أَرْشَدَ المَلِكَ إلى الطريقةِ التي يتحقَّقُ بها قَتْلُه ، ثم نَفَّذَهَا المَلِكُ ، وتحقَّق بها ما رَمَى إليه الغلامُ مِنَ المصلحةِ العظيمةِ

(١) رواه أبو داود (٢٥٠٨) ، والترمذي (٢٩٧٢) .
(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٥) .

العامَّةِ ، مِن إيمانِ الناسِ كُلِّهم بالله ، بعدما بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ ، وما أَجْرَى اللهُ لهُ مِنَ الكَرَامَةِ .

وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ قال : قال رسول الله ﷺ : « الَّذِينَ يَلْقَوْنَ في الصّفِّ الأَوَّلِ فَلاَ يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا ، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ[١] فِي الغُرَفِ الْعُلَى مِنَ الجنّةِ ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ ، إِنَّ رَبَّكَ إِذَا ضَحِكَ إِلَى قَوْمٍ فَلاَ نَجَاسَةَ عَلَيْهِمْ »[٢] .

كما روى ابنُ أبي شَيْبَةَ عن مُدرِك بن عوفٍ الأحمسيِّ قال : « كُنْتُ عِنْدَ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنِ النَّاسِ ، فَقَالَ : أُصِيبَ فُلاَنٌ ، وفُلاَنٌ ، وآخرون لاَ أَعْرِفُهُم ، فَقَالَ عُمَرُ : وَلَكِنَّ اللهَ يَعْرِفُهُمْ ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَجُلٌ نَرَى نَفْسَهُ ، فَقَالَ مُدرِكُ بْنُ عَوْفٍ : ذَاكَ وَاللهِ خَالِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، زَعَمَ النَّاسُ أَنَّهُ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ : كَذَبَ أُولَئِكَ ، وَلَكِنَّهُ مِمَّنِ اشْتَرَى الآخِرَةَ بِالدُّنْيَا »[٣] .

وقال محمَّدُ بنَ الحَسَنِ الشيباني في السير : « أَمَّا مَنْ حَمَلَ عَلَى الْعَدُوِّ فَهُوَ يَسْعَى فِي إِعْزَازِ الدِّينِ ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشَّهَادَةِ الَّتِي يَسْتَفِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُلْقِياً نَفْسَهُ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ ثم قال : لاَ بَأْسَ بِأَنْ

---

(١) [يتلبطون معناه هنا يضطجعون ، والله أعلم] ، الترغيب والترهيب (٢/٢٠٩) ، وقال ابن الأثير : [أي يتمرغون] ، النهاية في غريب الحديث (٤/٢٢٦) ، وقل ابن منظور في لسان العرب ، مادة لبط : [أيْ يتمرغون ، ويضطجعون] .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٤/٢٠٧) ، والطبراني في الأوسط (٤/٢٥٧) ، والترغيب والترهيب (٢١٣٠) للمنذري .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٧٨٩) ، وسنن البيهقي الكبرى (٩/٤٥) .

يَحْمِلَ الرَّجُلُ وَحْدَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُقْتَلُ ، إِذَا كَانَ يَرَى أَنَّه يَصْنَعُ شَيْئاً ، فَيَقْتُلُ أَوْ يَجْرَحُ أَوْ يَهْزِمُ ، فَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مَنَ الصَّحَابَةِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ »[١] .

وقيل لأبي هريرةَ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَامِرٍ لَمَّا الْتَقَى الصَّفَّانِ حَمَلَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، وَأَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ »[٢] .

وَقدْ ذَكَرَ الحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي « مَسْأَلَةِ حَمْلِ الوَاحِدِ عَلَى الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْعَدُوِّ أَنَّ الْجُمْهُورَ صَرَّحُوا بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لِفَرْطِ شَجَاعَتِهِ ، وَظَنِّهِ أَنَّهُ يُرْهِبُ الْعَدُوَّ بِذَلِكَ ، أَوْ يُجَرِّئُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، أَو نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ فَهُوَ حَسَنٌ »[٣] .

وَمَتَى كانَ مُجَرَّدَ تَـهَوُّرٍ فَهو مَمْنُوعٌ ، ولا سيّما إنْ تَرَتَّبَ على ذلك إضعافُ المسلمين .

ومِنَ التّضليلِ والتَّحَيُّزِ في المصطلحِ أنْ يُسَمَّى هذا « إرهاباً » ، إذَا كنا سنُجارِي الصيغةَ العالميةَ في إدانتِه ، أمّا إذا صحَّ لنا تقسيمُ الإرهابِ إلى إرهابٍ مذمومٍ ، وإرهابٍ محمودٍ ، فهذا ممكِنٌ ، وَلْيَكن الدفاعُ عنِ الأوطانِ ، والأعراضِ ، والأديانِ مِنَ الإرهابِ المحـمودِ :

---

(١) انظر المبسوط للسرخسي (٢٤/ ١٥٤) ، ذكر القرطبي في تفسيره نحوه عن بعض المالكية (٢/ ٣٦٣) .

(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٢١) ، وابن كثير (١/ ٢٤٨) .

(٣) فتح الباري (٨/ ١٨٥) .

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، والمسألةُ بكُلِّ حالٍ هي مسألةُ مُصْطَلَحٍ .

إنّ الحديثَ عن القوة النابعةِ مِن الضّعفِ ليس دعوةً إلى الرُضى بالضَّعفِ ، أو السكوتِ عنه ، بل هو دعوةٌ لاستشعارِ القوَّةِ حتى في حالةِ الضّعفِ ، إذاً يجبُ أنْ نبحثَ في كلِّ مظنَّةِ ضعفٍ عن سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أَخلصَ المسلمون في طلب ذلك لوجدُوه ، ولصار الضعفُ قوةً ، لأنّ الضعفَ ينطوي على قوةٍ مستورةٍ يؤيِّدُها اللهُ بحفظِه ورعايتِه ، فإذا قوةُ الضعفِ تهدُّ الجبالَ ، وتدكُّ الحصونَ ، أنتَ قويّ ، وهذا سرُّ ضعفكَ ، وأنا ضعيفٌ ، وهذا سرُّ قوَّتي !

لقد أَرْسَلَ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ إلى الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ رسالةً يَنْصَحُه فيها بالجهادِ ، وكان الفُضَيْلُ عَابِداً زَاهداً وَرِعاً ، وكان ابنُ المبارَكِ مجاهداً لا تَفْتُرُ هِمَّتُه فيه ، فقال فيما نصح به ، ونِعْمَ ما به نَصَحَ[١] :

يا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَومَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ

رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَ نَحْنُ عَبِيرُنَا ... رَهَجُ[٢] السَّنَابِكِ[٣] وَ الْغُبَارُ الأَطْيَبُ

---

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٨/ ٤١٢) ، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٤٨) .

(٢) [الرَّهَج الغبار] ، النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٨١) .

(٣) [السُّنْبُك طَرَفُ الحافر ، وجانباه مِن قُدُمٍ ، والجمع سنابك] ، (لسان العرب ، مادة سنبك) .

وَ لَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَـــا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لاَ يَكْـــذِبُ
لاَ يَسْتَوِي وغُبَارُ خَيْـــلِ اللهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَ دُخَانُ نَارٍ تلْهبُ
هَـــذَا كِتَـــابُ اللهِ يَنْطِـــقُ بَيْنَنَـــا لَيْـسَ الشَّهِيـدُ بِمَيْـتٍ لاَ يَكْـذِبُ

فمَا سُبُلُ الجهادِ المُتَاحَةُ لنا دعماً لِجِهَادِ إِخْوَتِنَا في الأَرَاضِي المُحْتَلَّةِ ؟

مِنْ مَوْقعٍ مَعلُومَاتِيٍّ وَرَدَ الإِحْصَاءُ التَّالِي : إنّ شَرِكَةً وَاحِدَةً مِن شَرِكَاتِ الدُّخَانِ في بَلَدٍ يَدْعَمُ العدُوَّ تربَحُ مِن مبيعاتِها للعالَمِ الإسلامِيِّ ثمانينَ مليونَ دولارٍ يومياً ، يعودُ على الكيان الصهيوني منها تسعةُ ملايين دولارٍ كل يوم بحَسَبِ اتِّفاق بينهما .

فما القولُ في أرباحِ بَقِيَّةِ شركاتِ السجائرِ ، وشركاتِ المطاعمِ المنتشِرَةِ في شتَّى بِقاعِ العالَمَيْنِ العربي والإسلامي ، وشركاتِ المشروباتِ الغازيةِ التي تحقِّق أرباحاً فلكِيَّةً ، وشركاتِ السيّاراتِ ، التي يتَصَدَّر الإعلانُ عنها معظمَ المحطاتِ الفضائيةِ في العالَم العربيِّ ؟

لو لمْ تَتَلَقَّ توجيهاً مِن قيادةِ بلدِك بضرورةِ المقاطعَةِ ، والْتَمِسْ لهَا العُذرَ إذَا شِئْتَ ، ألا تستطيعُ أنْ تَمْتَنِعَ ذاتياً عن شراءِ بضاعةٍ مِن صُنعِ بلدٍ يَدْعَمُ العدوَّ المجرمَ بأسلحةٍ فتَّاكةٍ يُبيدُ بها الشعبَ الفلسطينيَّ ، وتتساءَلُ بعدها : ماذا نفعلُ لنُصرةِ إخوتنا في فلسطينَ ؟ وهل تظنُّ أنّ أحداً يُجبِرُك على شراءِ هذه البضائعِ ؟ أو يسألُك : لِمَ لَمْ تَشْتَرِ ؟ هذا نوعٌ مِنَ الجهادِ لدعْمِ جهادِ إخوتك في الأراضي المحتلة ، وهو متاح لك .

يقولُ عليه الصلاةُ والسلامُ في الحديثِ الصّحيحِ : « مَنْ جَهّزَ غَازِياً

في سَبِيلِ الله فقد غَزَا ، ومَنْ خَلَفَ غَازِياً في سبيل الله بخير فَقَدْ غَزَا »[١] .

ألاَ تستطيعُ أيُّها المسلمُ أنْ تقتطِعَ مِن مَالِكَ مبلغاً تُرسِلُه في قناةٍ نظيفةٍ ، آمنةٍ ، بعدَ البحثِ عنها ، إلى إخوتِكَ في الأراضِي المحتلة ، وقد هُدِّمَتْ بيوتُهم ، ودُمِّرَتْ ممتلكاتُهم ، وجُرِّفَتْ مزارعُهم ، وأُتْلِفَتْ أدويتُهم ، وأُعْدِمَ رجالُهم رَمْياً بالرَّصَاصِ ، وسِيقَ أبناؤُهم إلى السجونِ والمعْتَقلاتِ ، وقُطِعَتْ عنهم الكهرباءُ ، فَتَلِفَتْ مُدَّخَراتُهم الغذائيةُ ، وقُطِعَتْ عنهم المياهُ ، فشَربوا المياهَ المالِحةَ ، أَتَهْنَأُ في حياتِك ، وأنتَ معافًى في أهلِك وولدِك ، آمِناً في بيتِك ، عندكَ قوتُ يومِك ، وإخوتُك في الأراضي المحتلةِ يعانُونَ ما يعانُون ؟ تسمعُ بأُذُنِك أخبارَهم ، وترى بِعَيْنَيْكَ أحوالَهم ، إنّك إنْ لمْ تحملْ همَّهم ، ولمْ تتحرَّكْ نحوَهم ، فأنت أولاً لستَ مِنَ المسلمين ، بدليلِ قولِ النبيِّ ﷺ : « مَنْ لاَ يَهتَمّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لاَ يُصْبِحُ وَيُمْسِي نَاصِحاً للهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلإِمَامِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ »[٢] .

وإذا ظننتَ أنَّ الذي أصابَهم لنْ يصيبك فأنتَ واهِمٌ ، لأنّ أطماعَ أعدائِنا لا تقفُ عند حدٍّ ، وكُتُبُ زعمائِهم تصرِّحُ بأطماعِهم ، من دون مُوَارَبةٍ[٣] ، أو حياءٍ ، وتقولُ بَعدَهَا : ماذا أفعل ؟ ليتني أكونُ معهم فأفوزَ

(١) البخاري (٢٦٨٨) ، ومسلم (١٨٩٥) عن زيد بن خالد الجهني .
(٢) الطبراني في المعجم الصغير عن حذيفة بن اليمان (٩٠٧) .
(٣) مواربة ، أيْ مِن غير دهاء ، [والمواربة مأخوذة مِن الإرب ، وهو الدهاء] (لسان العرب ، مادة ورب) ، وهذا لأن الأعداء يعملون الآن على مرأى مِن العالَم كله ، فكيدهم بيِّنٌ كالشمس في الظهيرة .

فوزاً عظيماً ، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « مَنْ خَلَفَ غَازِياً في أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا »[١] .

أَلاَ تَعْلَمُ أَنَّ عَدَداً كَبِيراً مِنْ أَبْنَاءِ إِخْوَتِنَا فِي الأَرَاضِي المُحتلَّةِ يَدْرُسونَ في جامعاتٍ عربيةٍ وأجنبيةٍ ، قُطِعَتْ عنهمْ الإِمداداتُ مِنْ أهليهم بسببِ سياسةِ الحِصَارِ والإفقار ، التي يمارِسُها العدوُّ الصهيونيُّ علَى أَهلِنَا في فلسطينَ ؟ وهل تعلمُ أنّك إذا خَلَفْتَ هؤلاءِ الأهلَ في أبنائِهم بخيرٍ ، فَلَكَ مِثْلُ أَجْرِهِمْ ، كَما قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وتقول بعدها : ماذا أفعل ؟ ليتني أكون معهم فأفوز فوزاً عظيماً .

أَلاَ يقتضِي انتماؤُكَ لهذه الأمّةِ التي حينما استجابتْ لربِّها جَعَلَها اللهُ خيرَ أمّةٍ أُخرِجَتْ للنّاسِ ، والتي حينما قَصَّرَتْ في أداءِ رسالتِها تطبيقاً ودعوةً ذاقتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَلَقِيَتْ الغَيَّ الذي توعَّدَها اللهُ به ، حيث أضاعتِ الصلاةَ ، واتَّبَعَتِ الشهواتِ ، ألا يقتضي انتماؤُكَ لهذه الأمّةِ التي لا يُدْرَى أوَّلُها خيرٌ أم آخرُها ، أنْ تشارِك إخوانَك في فلسطينَ مُصابَهُمْ ، فَتُلغِي كلّ ألوانِ البَذَخِ ، والترف ؟ علماً أنّ هذا السلوكَ يتنافَى مع منهجِ لمؤمنِ ، والمسلمون في أحسنِ حالٍ ، فكيف إذا كان جيرانُك المؤمنون في أسوأِ حالٍ ، فهذه الحفلاتُ التي تقام في ردهاتِ الفنادقِ ، وفي أبهاءِ المطاعمِ ، وفي حدائقِ المزارعِ ، والتي تبذلُ فيها الأموالُ الطائلةُ في مناسباتٍ ، وفي غير مناسباتٍ ، فَتُحَوَّلُ هذه الأموالُ الطائلةُ لِمَنْ هُدِّمَتْ بيوتُهم ، وقُتِلَ رجالُهم ، وأُسِرَ شبابُهم ، وهم قابعون في العَرَاءِ ،

(١) البخاري (٢٦٨٨) ، ومسلم (١٨٩٥) عن زيد بن خالد الجهني .

لا يجدون مَن ينصِفُهم ، ولا مَن يرحمُهم ؟ ألَم يَصِلْكَ قولُ رسولِ الله ﷺ : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ ، وَتَوَادِّهِمْ ، وَتَعَاطُفِهِمْ ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْواً ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »[١] ؟ وتقولُ بعد هذا : ماذا أفعلُ ؟ ويا ليتني كنتُ معهم فأفوزَ فوزاً عظيما!

جاءَ في حاشيةِ الدسوقي : « مَنْ كَانَ يَملكُ فَضْلَ طَعَامٍ ، ورَأَى جَائِعاً ، وَتَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ ، فَإِنْ كَانَ صاحِبُ الطّعامِ مُتَأَوِّلاً ، أي يظنُّه لا يموتُ ، فإنَّهُ يدفعُ دِيَتَهُ مِن عَاقِلَتِهِ ـ أقاربه ـ وَإِنْ كَانَ عَامِداً فَقَدْ جَاءَتْ رِوَايَتَانِ فِي المَذْهَبِ : إِحدَاهُما : أنّه يَدْفَعُ دِيَتَهُ مِنْ مَالِهِ الخَاصِّ ، والرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّهُ يُقْتَصُّ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ قَاتِلٌ »[٢] .

بَقِيَ بابٌ رابعٌ مِن أبوابِ الجِهَادِ المُفَتَّحَةِ أمامَ كلِّ واحدٍ منا ؛ هو بابُ الالتجاءِ إلى الله ، والتَّضَرُّعِ له ، والتَّذَلُّلِ على أَعْتابِه ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ »[٣] ، أفلا تملكُ أيُّها المسلمُ أنْ تتوبَ إلى اللهِ توبةً نصوحاً ، ثم تدعو اللهَ بصِدقٍ ، وتضرُّعٍ ، وإخلاصٍ لإخوانك في فلسطين ، أنْ ينصرَهم على أعدائِهم ، أعداءِ الله ، وأعداءِ الحقِّ ، وأعداءِ الخيرِ ، وأعداءِ البشريةِ ، أعداءِ الحياةِ ، الذينَ طَغَوْا في

(١) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٥) ، وغيرهما .
(٢) حاشية الدسوقي (٤/ ٢٤٢) ، بتصَرُّفٍ يسيرٍ .
(٣) البخاري (١٠٩٤) ، ومسلم (٧٥٨) ، وغيرهما .

البلادِ ، فأكثروا فيها الفسادَ ؟ فاسْأَلِ اللهَ في دعائك أنْ يَصُبَّ عليهم سَوْطَ عَذابٍ ، إنّ رَبَّكَ لَبالْمِرصَادِ .

قال تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الإسراء : ١٠٤ـ١٠٧] .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

وقال :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٨] .

ثمَّ إنّني لأَسمَحُ لنفسي أنْ أذكرَ حقيقةً مُرّة لِتَصْحُوَ الرؤوسُ مِن وَهْمٍ مُرِيحٍ : هؤلاءِ الأعداءُ ؛ الأقاربُ ، والأباعدُ ، حقَّقوا شروطاً صعبةً جداً ، بَنَوْا بها قوّتَهم ، خلالِ مئاتٍ مِنَ السَّنينَ ، فَأَمْلَوْا بسببِ قوّتهم إرادَتَهم ، وثقافتَهم على بقيّةِ الشعوبِ ، فأفسَدُوها ، وجعلُوا أَعِزَّةَ أهلِها أَذِلَّةً .

ونحنُ المسلمين يَجب عليْنَا مِن خلالِ الأمرِ القرآنِيِّ لَنَا أنْ نُعِدَّ لهم مَا نستطيعُ مِن قوةٍ ، بمفهومِ القُوَّةِ الواسعِ ، فَأُسَرُنَا ينبغِي أنْ تَتَمَاسَكَ ، وَأمّهاتُنا ينبغِي لهنَّ أنْ يَتَفَرَّغْنَ لتربيةِ أولادهنَ ، وطَالِبُنا ينبغِي أنْ يتفوَّقَ ، ومُعَلِّمُنا ينبغِي له أنْ يَحمِلَ رسالةً ساميةً يسعَى لتحقِيقِها ، وعامِلُنَا ينبغِي أنْ يُتْقِنَ ، وفلاَّحُنا ينبغِي أنْ يَرتَبِطَ بأرضِه ليزرعَها ، ومُوَظَّفُنا ينبغِي أنْ نعطيَه حقَّه ، وينبغِي له أنْ يتفانَى في خِدمةِ دافِعي الضرائب ، وقاضِينَا ينبغِي أنْ يعدِل ، وعالِمُنا ينبغِي أنْ يُؤْثِرَ خدمةَ أمّتِهِ على حظوظِه مِنَ الدنيا ، وداعِيَتُنَا ينبغِي أنْ ينصحَ ، لا أنْ يمدحَ ، وضابطنا ينبغِي له أنْ يوقِنَ أنّ المعركةَ مع العدوِّ قادمةٌ لا محالة ، وأنَّ حديثَ العدوِّ عن لسلامِ مراوغةٌ ، وكذبٌ ، وكسبٌ للوقتِ ، ليس غير ، وثرواتُنا ينبغِي أنْ تُسْتَخْرَجَ ، ومصانِعُنا ينبغي أنْ تَتَطَوَّرَ ، وأرضُنا ينبغي أنْ تُسْتَصْلَحَ ، ومياهُنا ينبغِي أنْ يُرْشَدَ استهلاكُها ، وهذا لا يكون إلا بإيمانٍ بالله ، يَحْمِلُنَا على طاعته ، وإيمانٍ باليومِ الآخرِ يَحْمِلُنَا على ألاَّ يظلمَ بعضُنا بعضاً ، وأنْ نطلبَ جزاءَ جُهدِنا وجهادِنا في الجنّةِ ، وهذا نوعٌ مِنَ الجهادِ ، لا تُقْطَفُ ثمارُه عاجلاً بل آجلاً ، وحينَ تقولُ لطالبٍ : واصلْ دراستَك ، وكنْ متفوِّقاً ، وخَطِّطْ لسنواتٍ قادمةٍ ، لتكونَ شيئاً مذكوراً في حياةِ الأُمّةِ ، ومستقبلها لاسْتَثْقَلَ هذا ، وَآثَرَ سماعَ الأخبارِ ، وأنْ يكونَ مُنْفَعِلاً لا فَاعِلاً ، إنّ بَعضَ الاندفاعِ قد يُضاعِفُ المعاناةَ بدلاً مِن حَلِّها .

وها هنا يَبرُزُ معنَى (الجهادِ) بمفهومِهِ الواسعِ الذي هو بَذْلُ أَقْصَى الوُسْعِ ، وغايتِه ، واستفراغُ الطاقةِ في تحصيلِ المرادِ ، وإنّ الغفلةَ عن المستقبلِ ستَجْعلُنا مشغولين أبَداً بإطفاءِ الحرائقِ هنا وهناك عن العملِ

الجادِّ الذي يخفِّفُ المعاناةَ عنْ أجيالِنا اللاحقةِ .

وإنّ علاجَ الجرحِ المفتوحِ على أهمِّيتهِ يجبُ ألاّ ينسيَنا التفكيرَ في مستقبلِ أجيالنا التي سوف تتساءلُ : هلْ تركْنا لها شيئاً آخرَ غيرَ الجِرَاحِ ؟!

ينبغِي أنْ يفكِّر الفردُ الواحدُ في المَوقعِ الذي يُفرِغ فيه طاقتَه ، ويؤدِّي مِن خلالِه دورَه ورسالتَه ، وبتحديدِ هدفِهِ يبدأُ بالمسيرِ إليه ، وبخطًى ثابتةٍ يقطعُ مراحلَ منه ، فيكونُ قد رَسَمَ الهدفَ ، وحَدَّدَ الطريقَ ، وبدأَ السعيَ . . وهذا يوصلُ وفْقَ السُّنَةِ الربانية إلى الهدفِ ، ومِن ثَمَّ تتزايدُ الأعدادُ الإيجابيةُ التي تمارِس دورَها على نحوٍ صحيحٍ ، بدلاً مِن أنْ تكونَ هذه الأعدادُ تسألُ فقط : ماذا نعمل ؟ ثُمَّ لا تعملُ شيئاً .

ولا ينبغِي أن يكونَ تفكيرُ الفردِ الواحدِ دائماً هو أنْ يرفعَ المعاناةَ عن الأمةِ كلِّها ، فالواحدُ القادرُ على رفعِ المعاناةِ كلِّها هو اللهُ عز وجلَّ .

فيكفي أنْ يَستفْرِغَ المرءُ جُهْدَه ، وطاقتُه ، ولا يَدَّخر منها شيئاً في مَوقعٍ معينٍ ، ثم لا يضيره أنْ تتحقَّق النتائجُ على يَدِ غيرِه بعد وضْعِ الأساسِ وبدْءِ البناءِ .

إن رَفْع المعاناة عن الأمة يتطلب عدداً كبيراً من المؤمنين الواعين المخلصين المضحين في جميع الميادين ، وهذا ما يجبُ السَّعْي إليه ، ولأَنْ ينجحَ فردٌ في إعدادِ مجموعةٍ مِنَ المواطنينَ إعداداً إيمانياً ، وعلمياً ، وعقلياً ، وخلقياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ، وجسدياً أَحَبُّ وأَنْفَعُ مِن أنْ يُلْقِيَ بنفسِه في أُتُونِ نارٍ تقولُ : هل مِن مزيدٍ ، إنَّ النجاحَ يكمنُ في أنْ يستخدمَ المرءُ عقلَه قبْلَ يدِه ، كما يفعل أعداؤُنا .

الأندلسُ فلسطينُ العربِ الأولى ، دَهَمَهَا الخَطْبُ ، وفَعَلَ بها الفِرَنْجَةُ ما يفعله الصهاينةُ اليومَ بالشعبِ الفلسطينيِّ ، فقال أحدُ شعرَائِها ، وهو أبو البقاءِ الرندِيّ يَستصْرِخُ المسلمين في المشرقِ ، وكأنّ التاريخَ يعيدُ نفسَه .

يَا رَاكِبينَ عِتَاقَ الخَيلِ ضَامِـرَةً ... كأنَّها فِي مَجَالِ السَّبْقِ عُقْبَـانُ
وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الهندِ مُرَفَّهَـةً ... كَـأَنَّهـا فـي ظَـلامِ النَّقْـعِ نِيـرَانُ
وَرَاتِعِيـنَ وَرَاءَ الْبَحْـرِ فِـي دَعَـةٍ ... لَهُـمْ بِـأَوْطَـانِهِـمْ عِـزٌّ وَسُلْطَـانُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْـلِ أَنْدَلُـسٍ ... فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَـانُ
كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضعَفونَ وَهُمْ ... قَتْلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَـانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لاَ دَلِيلَ لَهُـمْ ... عَلَيْهِـمْ فِـي ثِيَـابِ الـذُّلِّ أَلْـوَانُ
يَا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَـا ... كَمـا تُفَـرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْـدَانُ
وَ طِفْلَةٍ مِثْـلُ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ ... كَـأَنَّمَـا هِـي يَـاقُـوتٌ وَمُـرْجَـانُ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ[1] لِلْمَكْرُوهِ مُكْـرَهَةً ... وَالْعَيْـنُ بَـاكِيَـةٌ وَالْقَلْـبُ حَيْـرَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَبْكِي الْقَلْبُ مِنْ كَمَـدٍ ... إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلاَمٌ وَإِيمَـانُ

ومِن الإعدادِ لعدوِّنا الذي أُمِرْنَا بِهِ التعرُّفُ إلى أفكارِهِ وتصوراته ، وأهدافه القريبة والبعيدة ، فمِن هذا المُنطلَقِ قال شارون لصحفيٍّ صهيونيٍّ يهودي سنة (١٩٨٢) : « إنَّهُ لنْ يكونَ أفضلَ مِنْ ترُومَان الذي قَتَلَ نَصفَ مليونِ يابانيٍّ بقُنْبُلَتَيْنِ جَمِيلَتَيْنَ ، وربّما سَيَكْرَهُنِي العالَمُ ، وسَيَخْشَانِي

(١) جاء في (لسان العرب مادة علج) : [والعِلْـج : الرجل من كفَّار العجم . . . والأُنثى عِلَـجة . . . والعِلْـج : الكافر ؛ ويقال للرجل القويّ الضخم من الكفار : عِلْـج] .

بَدَلاً مِن أنْ أشْتَكِيَ إليه ، وربّما يخافُ مِن ضَرباتِي الجنونيةِ بَدَلاً مِن أنْ يَعْجَبَ بِرُوحِي الجَميلةِ ، وليرتجِف منّي ، وليعامِل بَلَدِي كَبَلَدِ مجَانينَ ، وليقلْ : إنّنا متوحّشونَ ، وإننا نُمثِّلُ خطرَ الموتِ لجميعِ الجيرانِ ، وإنّنا جميعاً غيرُ أسوياءَ ، ونستطيعُ أنْ نغرسَ أزمةً فظيعةً إذا قُتِلَ طفلٌ واحدٌ منّا ، وأنْ نفجِّرَ بسببِ ذلك آبارَ البترولِ في جميعِ الشرقِ الأوسطِ ! » .

وقد قالَ مندوبٌ لصحيفةٍ ، وهي واحدةٌ مِن أشهرِ ثلاثِ صحفٍ في بلدٍ يَدْعَمُ أعداءَنا : « لا توجَدُ قَيَمٌ ، ولا أخلاقٌ ، وإنّمَا هي القوةُ ، والقوّةُ وحدَها ، ومنذُ خمسة آلافِ سنةٍ ، والقويُّ يفرضُ ما يريدُ ، وكلّما أَمْعَنَّا في القوّة كَسَبْنَا أكثرَ ، فنحنُ حينما استَأْصَلْنَا الهنودَ الحمرَ ، والإنجليزُ حينَ استأصَلوا سكانَ أستراليا الأصليِّين نَجَحْنَا في حسمِ المعركةِ ، لكنَّ البيضَ في جنوبِ إفريقيا لأنّهم كانوا أرحمَ ، ولم يستأصِلوهم بالكُلِّيةِ انقلبوا عليهم ، وانتصروا في النهايةِ » .

أرأيتم إلى الفكرِ الذي ينطلق منه أعداؤُنا ، ومَن يُدَعِّمهم ؟

ونحنُ نقولُ استناداً إلى الحقِّ الذي هو وحيُ السماء : إنّ القوةَ لا تصنعُ الحقَّ ، ولكنَّ الحقَّ يصنعُ القوّةَ ، والقوة مِن دونِ حكمةٍ تدَمِّرُ صاحبَها ، قال تعالى :

﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] .

إنَّ نتائجَ الظلمِ لا يمكِنُ ضبط حساباتِها ، ولا تقدير ردودِ أفعالِها ، وذلك أنّ ردودَ فعْلِ المقهورينَ ، والمظلومينَ كشظايا القنابلِ ، تطيش في كلِّ اتجاهٍ ، وتصيبُ مِن غيرِ تصويبٍ .

إنَّ ردودَ أفعالِ المظلومين ، والموتورين لا يمكنُ التحكُّمُ في مداها ولا اتِّجاهِها ، وإنَّها تطيشُ متجاوِزَةً حدودَ المشروعِ والمعقول ، مخترِقةً شرائعَ الأديانِ ، وقوانينَ الأوطانِ ، وتَكْفُرُ أوَّلَ ما تكفرُ بهذه القوانينِ التي لم تضمن لها الحمايةَ أولاً ؛ فلذا لنْ تقبَلَها حاميةً لأعدائها .

إنَّ العلاجَ الأولَ والحقيقيَّ هو نزعُ فَتِيلِ الظلم ، الذي يَشحَنُ النفوسَ بالكراهيةِ والمَقتِ ، ويُعمِي البصائرَ والأبصارَ عن تدبُّرِ عواقبِ الأمور ، والنظرِ في مشروعيتها أو نتائجها .

حين ينتظِرُ الناسُ طويلاً قبل أنْ ينالوا حقوقَهم فَمِنَ المُرَجَّحِ أنّهم سيتصرفون في فترةِ الانتظارِ بطريقةٍ يصعبُ توقُّعُها .

والدليلُ على صِدْقِ هذا الكلامِ أنّهم قالوا بلسانِ كبيرِ مجرميهم : ليستْ مشكلتُنا اليومَ مشكلةَ أَمْنٍ ، بل هي مشكلةُ بقاءٍ ، لذلك جاءتْ ضربتُهم ضربةَ مَن فَقَدَ صَوَابَه .

إنّ مَن لا يمتلكُ الفِكْرَ المضادَّ للإرهابِ لا يستطيع أنْ يكافحَ الإرهابَ ، ولا أنْ يتحدثَ عنه ، ولا نستطيعُ أنْ نرى الإرهابَ الأصغرَ ، ونتَعَامَى عن الإرهابِ الأكبرِ ، وأيُّ طَرْحٍ للإرهابِ في العالَمِ ، ولا تكون دولة صهيون محوره الرئيسي فهو طَرحٌ ناقصٌ غيرُ موضوعيٍّ .

* * *

قصة صلاح الدين الأيوبي

في غمرةِ الألمِ الساحقِ ، والاقترابِ مِنَ اليأسِ القاتلِ ، وفي غفلةٍ عن ماضي هذه الأمةِ المُشرقِ ، ينبغي أنْ أضعَ بينَ يَدَيْ القُرَّاءِ صورةً مُشرقَةً مِن ماضينا ، لا أسوقُها تَغَنِّياً بها ، فالاكتفاءُ بالتَّغَنِّي بالماضي مِن صفاتِ الأغبياءِ ، بل لِتكونَ باعثاً للأملِ في النفوسِ ، ودافعاً لعملٍ مُثمرٍ ، نَستعيدُ به مَجْدَ أمّتنا ، وتألُّقَ حضارتِنا .

يومَ تَمَّ فتحُ مدينةِ القدسِ مِن قِبَلِ المسلمين بقيادةِ البطلِ صلاحِ الدين ، وتَمَّ تحريرُها مِن أَيدي الغزاةِ الطامعين ، وها نحن أولاءِ نرى القلوبَ قد امتلأتْ بالفرح ، والوجوهَ قد عمَّها البِشْرُ ، ونسمعُ الألسنةَ ، وقد لَهِجَتْ بالشكرِ ، لقد عَلَتِ الراياتُ ، وعُلِّقَتِ القناديلُ ، ورُفِعَ الأذانُ ، وتُلِيَ القرآنُ ، وصَفَتِ العباداتُ ، وأُقيمتِ الصلواتُ ، وأُديمَتِ الدعواتُ ، وتَجَلَّتِ البركاتُ ، وانْجَلَتِ الكُرُبَاتُ ، وزالَ العُبُوسُ ، وطابتِ النفوسُ ، وفرِحَ المؤمنون بنصرِ الله .

وها نحنُ أولاءِ ندخلُ المسجِدَ الأقصَى ، فإذَا المسلمون ، وفيهم صَلاحُ الدين وجُنْدُه يجلسون على الأرضِ ، لا تتفاوتُ مقاعدُهم ، ولا يمتازُ أميرُهم من أَحَدٍ منهم ، قد خَشَعَتْ جوارحُهم ، وسَكَنَتْ حَركاتُهم ، هؤلاءِ الذينَ كانوا فرساناً في أرضِ المعركةِ ، استحالُوا رُهباناً خُشَّعاً ، كأنَّ على رؤوسِهِمُ الطيرَ ، في حَرَمِ المسجدِ ، وها هو ذا خطيبُ المسجد ، مُحيي الدين القرشي ، قاضي دمشقَ يصعدُ المنبرَ ، ويُلقِي خطبَتَه ، ولو أُلْقِيَتْ علَى رمالِ البِيدِ لَتَحَرَّكَتْ ، وانقلبتْ فرساناً ، ولو

سَمِعَتْهَا الصخورُ الصُّمُّ لانبثقتْ فيها الحياةُ ، لقد افتَتَحَها بقوله تعالى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وها نحنُ أولاءِ نستمعُ إلى فقراتٍ من خطبته : « أَيُّها النَّاسُ ، بَشِرُوا بِرِضْوانٍ مِنَ اللهِ ، الذي هو الغايةُ القُصوَى ، والدرجةُ العليَا ، لِما يسَّرهُ اللهُ على أيديكم ، مِن استردادِ هذه الضالَّةِ مِنَ الأمَّةِ الضالَّةِ ، وَرَدِّها إلى مَقَرِّهَا مِنَ الإسلامِ ، بَعْدَ ابْتِذَالِها في أَيْدِي المُعْتَدِينَ الغَاصِبينَ قريباً مِن مئةِ عامٍ ، وتطهيرِ هذا البيتِ الذي أَذِنَ اللهُ أنْ يُرْفَعَ ، ويُذْكَرَ فيه اسمُهُ ، مِن رِجْسِ الشِّركِ والعُدْوانِ » .

ثم قالَ محذِّراً : « إياكم ؛ عبادَ اللهِ أنْ يَسْتَزِلَّكُمُ الشيطان ، فيُخَيَّلَ إليكم أنّ هذا النصرَ كان بسيوفِكم الحدادِ ، وخيولِكم الجيادِ . . لا واللهِ ، وما النصرُ إلا مِن عند اللهِ . . فاحذروا عباد الله ، بَعْد أنْ شَرَّفكُمُ اللهُ بهذا الفتحِ الجليلِ ، أنْ تَقْتَرِفُوا كبيرةً مِن مَنَاهِيهِ ، انصروا اللهَ ينصُرْكم . . خُذُوا في حَسْمِ الدَّاءِ ، وَقَطْعِ شَأْفَةِ الأَعْدَاءِ » .

وها نحنُ أولاءِ نَخْرُجُ مِنَ المسجد الأقصى ، ونَلْتَقِي بِأَحَدِ الفِرَنْجَةِ الذين شَهِدُوا فَتْحَ القُدْسِ ، وها هو ذا يحدِّثُنا ، فيقول : « إنَّ المسلمينَ لم يُؤْذُوا أَحَداً ، وَلَم يَنْهَبُوا مالاً ، ولم يَقْتُلوا مُسالِماً ، ولا مُعاهِداً ، وإنَّ مَن شَاءَ منّا خَرَجَ ، وحَمَلَ معه ما شاءَ ، وإنا بِعْنَا المسلمينَ ما فَضَل مِن أمتعتنا ، فاشتَرَوْها منا بأثمانِها ، وإننا نغدو ، ونروحُ آمنين مطمئنِّين ، لم نرَ منهم إلا الخيرَ والمروءةَ ، فهم أهلُ حضارةٍ وتَمَدُّنٍ ، وصَدَقَ من قال : ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منهم » .

يقول اللهُ عز وجل في محكم كتابه :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فمَن يدري أنّ هذه المحنةَ الشديدةَ التي يمرُّ بها المسلمون وراءَها منْحةٌ ثمينةٌ مِن ربِّ العالمين ، وأنّ هذه الشِّدَّةَ التي نَزَلَتْ بالمؤمنين وراءها شَدَّةٌ إلى الله ربِّ العالمين ، وأنَّ كبيرَ مُجرمِي العدوِّ سَخَّرَهُ اللهُ دونِ أنْ يريدَ ، ودون أنْ يشعرَ ؛ لتوحيدِ المسلمينِ ، وشَحْذِ هِمَمِهِمْ ، وبثِّ رُوحِ البطولةِ والتضحيةِ فيهم ، وأنَّ كبيرَ مُجرِمِي العدوِّ سخَّره اللهُ دونِ أنْ يريدَ ، ودون أنْ يشعرَ ؛ لِنعودَ إلى ديننا ، والى قرآننا ، وإلى سُنَّةِ نبيِّنا ، لنَصْحُوَ بعدَ غفلةٍ ، ولِنقومَ بعدَ قُعودٍ ، ولِنتحرَّكَ بعد سكونٍ ، ولنتعاونَ بعدَ تنافسٍ ، ولنصطلحَ بعد خِصامٍ .

ولأنّ الإيمانَ بالله لا يكونُ إلا بعدَ أنْ نَكفُرَ بالطاغوتِ ، لقد أعانَنَا أعداؤُنا بجَرائِمِهم التي يَشِيبُ لِهَوْلِهَا الوِلْدَانُ ، أنْ نَكفرَ بهم ، وبحضارتِهم ، وبمنجزاتِهم ، وأنْ نلْتَفِتَ إلى دِينِنا وحضارتِنا ، وأبناءِ جِلدتِنا .

عُدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَ مِنَّةٌ فَلاَ أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيَا
هُمُ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاكْتَسَبْتُ المَعَالِيَا

وممَّا لا شكَّ فيه ولا ريبَ أنّ اللهَ وَعَدَ عبادَه المؤمنينَ بالنصرِ والتمكينِ ، وفي هذا آياتٌ كثيرةٌ مستفيضةٌ ، قال تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم : ٤٧] ، وقال عزوجل :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٩] ، وقال سبحانه :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وقال عزوجل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وقال تعالى :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وقال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور : ٥٥] .

فإذا اسْتَوْفَيْنَا الشُّروطَ المَعنَوِيَّةَ والمَادِّيَةَ ، وَعَبَدْنَا اللهَ حَقَّ العِبَادَةِ وَفَّى اللهُ بِوَعْدِهِ لَنَا ، وبوَعِيدِهِ لِلْكُفَّارِ ، فَنَحْنُ بَيْنَ وَعْدِ اللهِ بِالنَّصْرِ ، وَشَرْطِ تَحَقُّقِهِ ، فلْنُراجِعْ أنفسَنا ، ولْنَتُبْ إلى اللهِ ، عسى اللهُ أنْ يعزَّنا بِنَصْرِهِ ، ويؤيِّدَنا بِتَأْيِيدِهِ ، ويكُفَّ عنَّا بأسَ الكافرِينَ ، ويَوْمَئِذٍ يفرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَن يشاءُ ، وهو العزيزُ الحكيمُ .

* * *

التحليلُ الإسلاميُّ للحوادِثِ

هناك مقولةٌ توحيديةٌ تملأُ النفسَ أمناً ورِضًى ، وهي أنّ كلَّ شيء وَقَعَ أراده اللهُ ، وأنّ كلَّ شيءٍ أرادهُ اللهُ وَقَعَ ؛ لأنه لا يمكنُ ولا يُعقَلُ أنْ يقعَ في مُلْكِ الله ما لا يريدُ ، فلكلِّ واقعٍ حكمةٌ ، وليس كلُّ مُوقعٍ مِن بني البشر حكيماً ، فإرادةُ الله التي سمحتْ لِمَا حَدَثَ أنْ يحدثَ متعلقةٌ بالحكمةِ المطلقةِ ، أيْ : إن الذي حَدَثَ لو لم يحدثْ لكانَ نقصاً في حكمةِ الله ، ولكانَ اللهُ مَلُوماً ، فلكلِّ شيء حقيقةٌ ، وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يعلمَ أنَّ ما أصابَه لم يكن لِيُخْطِئَهُ ، وما أَخْطَأَهُ لم يكن ليصيبَه ، وحكمتُه المطلقةُ متعلقةٌ بالخيرِ المطلقِ ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

لم يقل : بيدك الخير والشر .

إنّ الشرَّ المطلَقَ لا وجودَ له ، بل هو يتناقضُ مع وجودِ الله ، فاللهُ عزوجل يوَظِّفُ الشرَّ الذي في بعضِ النفوسِ ، نفوسِ المُعرِضين عنه لخيرٍ كبيرٍ ، ربما لا تُدرَك حكمتُه عاجِلاً ، ولا أدلَّ على ذلك مِن حديثِ الإفكِ ، إذ اتُّهِمَت السيدةُ عائشةُ رضي الله عنها ، بنتُ الصِّدِّيقِ ، وزوجةُ

رسول الله ﷺ ، اتُّهِمَتْ في أثمنِ ما تملكُ الأنثى ، فكانَ التفسيرُ التوحيديُّ القرآنيُّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور: ١١].

والتفسيرُ التوحيديُّ للحوادثِ لا يُلغِي المسؤوليةَ ، لذلك قال تعالى :

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [النور : ١١] .

إنّ القضيةَ الأساسيةَ في التعاملِ مع الأحداثِ الجِسامِ ليست تصديقَ وقوعِها ، أو عدمَ تصديقِه ، فطبيعةُ العصرِ مِن حيثُ التواصلُ الإعلاميُّ ، وثورةُ المعلومات المتفجرة ، واجتماعُ الأممِ والشعوبِ في غرفةٍ إعلاميةٍ واحدةٍ ، يُلغي موضوعَ التصديقِ ، أو عدمِ التصديق ، ولكنّ العبرةَ في التعاملِ مع الأحداثِ الجِسامِ وتحليلِها التحليلَ الصحيحَ ، ثم انخاذ موقفٍ ، والانطلاقُ لعملٍ مِن خلالِ هذا الموقفِ ، ولنضربْ على ذلك مثلاً .

لو أنّ صاحبَ سيارةٍ في أثناءِ قيادته لها تألّقَ ضوءُ الزيت في لوحةِ البياناتِ التي أمامه ، فالمشكلةُ ليست في تصديقِ التألُّقِ ، أو عدمِ تصديقِه ، لقد رأى تألُّقَه بأمِّ عَيْنِهِ ، ولكنّ المشكلةَ في فَهْمِ هذا التألُّقِ ، وتحليلِه ، والسلوكِ الذي يُبنَى على هذا الفَهْمِ والتحليلِ ، فلو فَهِمَ التألُّقَ على أنّه ضوءٌ تزينيٌّ ، فتابَع السَّيْرَ ، لاحترقَ المحرِّكُ ، وتكلّفَ لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطّل سيرُه إلى هدفه ، أما إذا فَهِم هذا التألّقَ على أنه ضوءٌ تحذيريٌّ ، فإنه يوقف السيَّارةَ ، ويضيف الزيتَ ، فيسلِم محرِّكُ السيارةِ

من الاحتراقِ ، ويتابَع سَيْرهُ إلى هدفه ، فليست العبرةُ لا في التصديق وعدمِه ، بلْ في فَهْمِ الحدثِ وتحليلِه .

والآن إلى التحليلِ الإسلامي ، والإضاءةِ القرآنيةِ لِمَا حَدَثَ ، ولِمَا يحدثُ ، ولِمَا سوف يحدثُ ، آياتٌ قرآنيةٌ لا تحتاج إلى تفسير ، قال عزوجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال عزَّ مِنْ قائلٍ :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[الحج : ٤٨]

و(ثُمّ) في قوله : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ تفيدُ التَّراخي .

قال عزوجل :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾

[القصص : ٤ـ٦]

وقال تعالى :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ ـ في الخندق ـ ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ١٠-١١] ، وقال سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ، وقال :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وقال :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠]

* * *

إيجابياتٌ في الأحداث الأخيرة

من السهلِ جداً أنْ نعاينَ السَّلبياتِ ، وما أكثرَها في الأحداث الأخيرة ، ولكنْ ليس من السهلِ ، وليس متاحاً لكلّ إنسانٍ أنْ يكتشفَ الإيجابياتِ فيها ، لأنّها تحتاجُ إلى بُعدِ نظر ، وإلى قوّةِ بصيرةٍ ، وهذا ليس متاحاً لمعظمِ الناسِ ، يُضاف إلى ذلك أنه مِن منطلقِ العقيدةِ الإسلاميةِ الصحيحةِ أنّ كلَّ شيءٍ وقعَ أرَادهُ اللهُ ، بمعنى أنّه سمح به فقط ، فلا يُقبَل ، ولا يُعقَلُ أنْ يقعَ في مُلْكِ اللهِ ما لا يريد ، وأنّ كلَّ شيءٍ أرادَه اللهُ وقعَ ، فهو فعّالُ لِمَا يريد ، وأنّ إرادَته متعلِّقةٌ بالحكمةِ المطلقةِ ، لأنّ كمالَ اللهِ مطلَق ، وحكمتُه المطلقةُ متعلِّقةٌ بالخيرِ المطلقِ ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

يضاف إلى ذلك أنَّ لكل واقعٍ حكمةً ، ولو كان الموقعُ غيرَ حكيمٍ ، لأنّ اللهَ جلّتْ حكمتُه يوظِّف الشرَّ الذي تنضحُ به نفوسُ المعرضين للخيرِ المطلقِ ، ولأنّ الشرَّ المطلقَ لا وجودَ له في الكون ، بل هو يتناقضُ مع وجودِ الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

دققوا : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

يوظَّف الشّرُّ الذي تنضحُ به نفوسُ المعرضين للخيرِ المطلقِ ، وبناءً على هذا فسنحاول تلمُّسَ الحكمةِ الربانيّةِ في الأحداث الأخيرة ، منطلقين من قوله عزو جل في كتابه :

﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

مِن الحقائقِ المُرّةِ التي هي أفضلُ أَلْفُ مَرّةٍ مِنَ الوهمِ المريحِ أنّ هناكَ خسائرَ لحَقتْ ، وتلحقُ بالمسلمين مِن خلال الأحداثِ الأخيرةِ ، وأنّ ثمّة مكاسبَ للطرفِ الآخرِ حقّقها ، وقد يحقّقُ غيرَها ، ولكنّ السؤالَ المطروحَ : كيف نتلمسُ المكاسبَ تحت ركامِ الخسائرِ ؟ وما مِن شكٍّ في أنّ لكل معركةٍ خسائرَ ظاهرةً ومكاسبَ خفيّةً ، والمتأمّلُ في التاريخ يرى صوراً للنصرِ انبثقتْ من حطامِ المأساةِ ، إذاً تفاءلوا ، « وكانَ النبي ﷺ يعجبه الفأل الحَسنُ ، ويكره الطيرة »[1] .

في الأحداثِ الأخيرةِ سقطتْ مبادئُ القوم ، وسقطتْ شعاراتُهم ، وأخفقت مؤسّساتُهم وهيئاتهم ، فالحريّةُ والديمقراطيةُ ، والعدالةُ وحقوقُ الإنسانِ ، وما شابهَها باتت مصطلحاتٍ محنَّطةً مِن مخلّفات الماضي ، وكادت هذه القيمُ الغربيّةُ البرّاقةُ تصرفُ النفوسَ عن قيمِ الدِّين الأصيلةِ ، وتخطفُ الأبصارَ عن مضامين وحيِ السماءِ ، فلمّا سقطتْ مبادئُ القومِ وقيمُهم لم يبق في ساحةِ القيمِ إلا قيمُ الدين ، ولم يبقَ من

(١) ابن ماجه (٣٥٣٦) عن أبي هريرة .

خُلقٍ إلا خُلقُ أهلِ الإيمان ، كما أنّ الأحداثَ الأخيرةَ وسَّعتْ دائرةَ المقتِ للغربِ البعيد ولمبادئه ولحضارته ، وكثّرتْ من سوادِ الرافضين لأفكاره ومبادراته ، وأنّ كثيراً من المفهوماتِ والأنماطِ والسلوكياتِ الاجتماعيةِ سيعادُ النظرُ فيها ، أعني تلك التي صُدِّرتْ إلينا من الغرب على مستوى الرجلِ والمرأةِ ، وعلى مستوى الأسرةِ والعلاقاتِ والنشاطاتِ ، فالمقتُ للغربِ البعيدِ سيَسْرِي على مقتِ صادراتهم الفكريةِ ، وأنماطِ حياتِهم الاجتماعيةِ ، ولا مجالَ اليومَ ولا غداً لمنْ كانوا ينظرون للغربِ عامّةً على أنه قِبلةُ الفكر ، ونموذجُ القيم ، فقد كشفت حقيقةُ القومِ ، وآن الأوانُ للمسلمين أنْ يعتزّوا بقيمهم الإسلامية ، وأنماطِ حياتهم الاجتماعيةِ .

وأما الآلةُ العسكريةُ فليست كما يقالُ لحفظِ العدلِ والسلامِ ، بل للتدمير والاحتلال ، فلا تفرّق بين مدنيّ وعسكريّ .

إنَّ الآلةَ الإعلاميةَ تلبّستْ بالكذبِ والتزويرِ والاستخفافِ بالعقولِ ، وقد اتّضحَ للمسلمين من خلالِ الأحداثِ الأخيرةِ أنّ الجهادَ بمضامينه الشموليةِ والعميقةِ لا يمكن أن يكون ردَّ فعلٍ مرتجَلاً على خطرٍ طارئٍ ، إنّما هو سلوكٌ مستمرٌّ لكلِّ أفرادِ الأمّةِ ، بصرفِ النظرِ عن الظروفِ المحيطة .

فالجهادُ الأساسيُّ : هو جهادُ النفسِ والهوى ، ذلك أنّ المهزومَ أمام شهواته وأمامَ حظوظِه لا يمكن أنْ يقاومَ عدواً ، أخذاً مِن قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

فما لم تكن مشاريعُ التغييرِ منطلِقةً من داخلِ النفسِ فإنّها لا تنجحُ إطلاقاً .

والجهادُ الثاني : هو الجهادُ الدعويُّ ، ذلك أنّ الإنسانَ الذي لا يعلم مَن هو ، ولا يعلم سرّ وجوده ، ولا غايةَ وجوده ، ولا يعرف ربَّه ، ولا يعلم مُرادَه منه ، ولا يعلم حقيقةَ الحياةِ الدنيا الفانيةِ ، ولا عِظمَ الآخرةِ الباقيةِ ، مِثلُ هذا الإنسان لا يمكن أنْ يقاوِمَ عدواً ، أخذاً مِن قوله تعالى :

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « وجاهدهم به أي بالقرآنِ »[1] ، فالجهادُ الكبيرُ إنّما هو الدعوةُ والبيانُ بالحُجّة والبرهان ، وأعظمُ حُجّةٍ وبيانٍ هو هذا القرآنُ ، إنه حُجّةُ اللهِ على خَلْقهِ ، ومعه تفسيرُه وبيانُه الذي هو السُّنّةُ الصحيحة .

والجهادُ الثالثُ : هو الجهادُ البنائي ، وهو أنّ كلَّ مسلم في موقعه عليه أنْ يطوِّرَ علمَه وخبرتَه ، وأنْ يتقنَ عملَه ويحسنَه ، وأنْ يضعَ إنجازَه هذا في خدمةِ المسلمين ، فإذا كانت الأمةُ الإسلاميّةُ بحاجةٍ إلى واحدٍ يموت من أجلِها فهي في أمسِّ الحاجةِ إلى ألفِ إنسانٍ يعيشُ من أجلها ، أخذاً مِن قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فالمؤمنون بمجموعهم مأمورون بإعدادِ العُدّةِ ليواجهوا بها قُوى البغي والعدوانِ ، فكلمة : ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ تعني استنفاذَ الجهدِ لا بذلَ بعضِ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢) .

الجهد ، والقوّةُ التي ينبغي أنْ يُعدّها المؤمنون جاءت منكَّرةً تنكيرَ شمولٍ ، ليكونَ الإعدادُ شاملاً لكلّ القُوى التي يحتاجها المؤمنون في مواجهة أعدائهم ، من قوّةٍ في العَدد ، وقوّةٍ في العُدد ، وقوّةٍ في التدريب ، وقوّةٍ في التخطيط ، وقوّةٍ في الإمداد ، وقوّةٍ في التموين ، وقوّةٍ في الاتصالات ، وقوّةٍ في المعلومات ، وقوّةٍ في تحديد الأهداف ، وقوّةٍ في دقّةِ الرميِ ، وقوّةٍ في الإعلام ، بل إنّ كلمةَ ﴿مِنۡ﴾ التي سَبَقَتِ القوّةَ جاءت لاستغراقِ أنواعِ القوّةِ واحدةً إثْرَ واحدةٍ .

لقد أفادت الآيةُ استقصاءَ أنواعِ القُوى ، لا اصطفاءَ بعضها ، وكلمة : ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ جاءت عطفاً للخاصِّ المألوفِ وقتَ نزولِ القرآنِ على العامِّ الذي يستغرقُ كلَّ الأزمانِ والبيئاتِ والتطوُّراتِ والتحدِّياتِ ، وهذا الإعدادُ يحقِّقُ أهمَّ أهدافِه ، ولو لم تقع المواجهةُ مع العدو ، إنها رهبةُ القويِّ تُقذَفُ في قلوبِ أعدائه ، لقوله تعالى :

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

هذا فضلاً عن البناءِ العلميّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ ، وهذا كلُّه ممّا يعنيه الجهادُ البنائيُّ ، فإذا تحقّق جهادُ النفسِ والهوى ، وتحقَّق الجهادُ الدعويُّ ، وتحقَّقَ الجهادُ البنائيُّ ، وكان جهداً يومياً مستمراً ، وجهداً واعياً مخلصاً ، عندئذ وبعد تحقُّقِ هذه الشروط الثلاثة يُنتَظَرُ أنْ ينجحَ الجهادُ القتاليُّ .

إنّ من المكاسبِ الخفيّةِ في الأحداثِ الأخيرةِ تَقَارُبَنا ووحدتَنا ، ولاشكّ أنّ المسلمين يعيشون حالةً من الفُرقةِ لا يُحسَدون عليها ، ولكنّ الأحداثَ إذا ما استُثْمِرَتْ توحِّدُ كلمتَهم ، وتجمعُ شملَهم ، فالخطرُ

يحيط بهم جميعاً ، والمخطَّطُ يستهدفُهم جميعاً ، وفرقتُهم وتناقضُهم أمضَى سلاحٍ يلعبُ به أعداؤُها الصهاينةُ ، وحينما تجتمعُ أو تتقاربُ تبدأُ في السيرِ على الطريقِ الصحيحةِ لمقارعةِ أعدائها ، ولاشكَ أنّ عاطفةَ المسلمِ في المشرقِ حينما تلتقي مع عاطفةِ المسلمِ في المغربِ كان هذا شيئاً عظيماً ، وهذا ما بدأنا نلمسُه في هذه الأحداثِ الأخيرةِ ، والمؤمَّل أنْ تتنامى هذه المشاعرُ ، وأن تُستَثْمَرَ .

ومن المكاسبِ الخفيّةِ للأحداثِ الأخيرةِ التفكيرُ الجماعيُّ والمشورةُ ، والتفكيرُ للخروجِ من الأزمةِ غانمين ، وليس مجرّدَ سالمين ، هذه إيجابيةٌ طالما غَفلَ عنها المسلمون ، إذ اعتادوا على التفكيرِ الأحاديّ ، والمشاريعِ الفرديةِ ، وهذه مع أهمّيتها لابد من أن تكونَ جماعيةً ، فقد قال الله عز وجل :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] .

والتعاونُ والمشاورةُ الجماعيّةُ مِن سِماتِ المسلمين ، ومن خصائصِ دينِهم .

لقد كان لهذه الأزماتِ أثرٌ في تحريكِها وتقريبِ وجهاتِ النظرِ ، والمأمولُ أنْ تزيدَ هذه الإيجابيةُ ، وأن تُستَثمَرَ ، وأنْ يتمّ التعاونُ على الخير ، والمشورة لصالحِ الإسلامِ وقضايا المسلمين .

ومن مكاسبِ المسلمين من خلالِ هذه الأحداثِ الأخيرةِ أنّها أَحْيَتْ في نفوسهم مشاعرَ العزّة بالإسلامِ ، فقد كانت الضربةُ من القسوةِ حيث أيقظتْ نيامَ المسلمين ، وأذْكَت مشاعرَ الغافلين ، وبات المسلمون في

شتّى أقطارِهم يشعرون بأنهم وحْدَهم الهدفُ الحاضرُ والمستقبلُ ، وتجدّدت مفهُوماتُ الولاءِ والبراءِ عند المسلمين ، وأحسّ المفرطون من المسلمين بحاجتهم إلى التوبةِ والعودةِ إلى الدينِ ، ولقد كان صلفُ القوم سبباً في إشعالِ هذا الفتيلِ .

ومن مكاسبِ المسلمين في الأحداثِ الأخيرةِ أنّ الفرصةَ مواتيةٌ للدعوةِ إلى الدينِ الحقِّ ، وكشفِ محاولةِ الأعداءِ لتشويهِ صورةِ الإسلامِ ، ونبيِّ الإسلامِ ، وبلادِ المسلمين ، والفرصةُ مناسبةٌ لدعوةِ المسلمين للتمسُّكِ بدينهم ، فقد باتتِ الآذانُ مهيَّأةً لسماعِ هذا أكثرَ من أيّ وقتٍ مضى ، فهل يستثمرُ المسلمون عامّةً والدعاةُ والعلماءُ والمفكرون خاصّةً هذه الفرصةَ المواتيةَ للدعوةِ ؟

إنّ الدعوةَ إلى الدين الحقِّ دعوةٌ إلى الثوابتِ ، طالَبَ بعضُهم بالتنازلِ عن بعضِ الحقوقِ بحجّةِ استيعابِ العاصفةِ ، وكان البعضُ يعتقدُ بأنه بذلك ينحني للعاصفةِ ، لكنهم لم يفرِّقوا بين الانحناءِ للعاصفةِ واقتلاعِ الجذورِ من الأرضِ حتى قبل أن تأتيَ العاصفةُ ، عندما تقتلعُ الأمّةُ من جذورها فأيُّ ريحٍ خفيفةٍ سوف تأخذها إلى المجهولِ ؟ عندما تكون هناك عواصفُ فنحن بحاجةٍ أكثرَ إلى التمسُّكِ بالثوابتِ والمبادئ التي هي جذورنا ، فالعاصفةُ مهما استمرّت سوف تنتهي ، وعندما نحاول الوقوفَ بعد غيابِ العاصفةِ لن نستطيعَ الوقوفَ إنْ لم تكن لنا جذورٌ ، وبالتالي عندما تكون هناك عواصفُ فيجب أنْ نتمسّكَ أكثرَ بالثوابتِ ، فالعواصفُ تأتي وتذهبُ ، أمّا الثوابتُ إذا ذهبت فلن تعودَ ، عدا عن أنّ هذه العواصفَ متبدِّلةٌ بتبدُّلِ المصالحِ » .

إنّ من أشدّ آفاتِ المسلمين فتكاً بهم جزئيةَ النظرِ ، ومحدوديةَ الفهمِ للدينِ ، كلٌّ أَخذَ جانباً ، واستغرقَ فيه حتى صار لا يرى غيره ، وأصيبَ بالعمى عن رؤيةِ غيرِ ما هو فيه ، وقد يستفحلُ هذا الداءُ فلا يرى هؤلاء في الميدانِ أحداً غيرَهم ، يتصرّفون حينئذٍ على أنهم الذين يمثّلون وحدهم المسلمين ، وأنهم وحدهم الذين يحملون الراية ، وعلى الآخرين أنْ يتبعوهم ، وينقادوا إليهم ، ومن أسبابِ هذا الداءِ الانغلاقُ على النفسِ ، والجهلُ بواقعِ المجتمعِ ، وبواقعِ المسلمين ، والجهلُ بما عند الآخرين ، وعدمُ التواصلِ والتحاورِ معهم .

أوجّهُ الخطابَ لكلِّ مسلمٍ : أنت أيها المسلم مدعوٌّ إلى المساهمةِ في استثمارِ هذه الأزمةِ ، فماذا قدَّمتَ ؟ هل ساهمتَ بكلمةٍ طيبةٍ ؟ هل تقدَّمتَ بمقترحٍ مفيدٍ ؟ هل فكَّرتَ في مشروعٍ نافعٍ للأمّةِ ، هل أعنتَ ملهوفاً ؟ هل دعوتَ من قلبٍ مخلصٍ لمكروبٍ ؟ أيّ نوعٍ من المساهمة قدّمتَ لنفسك ولأمتك ؟ هل تصدَّق ، وهل يصحُّ أن تقول : لا أستطيعُ عملَ شيءٍ ، هل ترضى أن تكون رقماً هامشياً في أمّتك ؟ هل يكفيك أنْ تديرَ موجاتِ المذياعِ بحثاً عن آخرِ الأخبارِ ، ثم ماذا ؟ أو تنظرَ بسلبيةٍ إلى المشاهدِ الداميةِ عن إخوانك المؤمنين ، وهم يُقتلون ، وتُحتَلُّ أرضُهم ؟ إنّها دعوةٌ إلى المساهمةِ ، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾

[فصلت : ٤٦]

والإسلام مسؤوليتنا جميعاً ، وكيد الأعداء يستهدفنا جميعاً ، وحقوق المسلمين علينا جميعاً .

* * *

الانتفاضة

إذا كانت مكّةُ محطَّ حجِّ بيت الله الحرام فماذا عن مسرى سيد الأنام ؟ إنه المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، ولا يعلم إلا الله ماذا يجري حوله من جرائم يندى لها جبين الإنسانية ، ويفرَق من هَوْلِهَا وحوشُ الغاب .

قَتْلُ امرئٍ في غابةٍ جَريمةٌ لا تُغْتَفَرْ وقَتْلُ شعبٍ مسلمٍ مسألةٌ فيها نَظَرْ

الحقيقةُ أنّه لا بدَّ أنْ نشكرَ أطفالَ الانتفاضةِ ، بل الواجبُ على كل مسلمٍ أنْ يقدِّم لهم الشكرَ ؛ حيثُ جعلوا لنا قضيةً نستطيعُ أنْ نتوحَّدَ حولَها ، ونتحدّثَ عنها ، ونحزنَ مِن أجلها ، ونتجمعَ بسببِها ، لقد رفعُونا عن كثيرٍ مِن همومِنا الصغيرةِ التي كانت تستنزِفُنا في ما مضى .

إنّ الانتفاضةَ مباركةٌ ، لأنها حرَّكتِ القضيةَ داخلَ فلسطينَ ، وداخلَ الأرضِ المحتلةِ ، فقد أصبحَ اليهودُ يشعرون حقًّا بعقدةٍ ، فهذه الأرضُ ليستْ بلا شعبٍ ـ كما قيل لهم ـ فهُمْ يفاجَئُون أنّه يخرجُ عليهم شابٌّ مِنَ الأرضِ نفسِها في فلسطينَ ، هو أكثرُ حماساً منهم لهذهِ الأرضِ ، وأكثرُ تضحيةً ، وأكثرُ إصراراً ، وأكثرُ صدقاً في حمايتها ، والشعورِ بقداستها ، حتَّى الصِّبيةُ الصغارُ أصبحوا يدافعون عنها بهذه الطريقةِ التي لم تكن

مألوفةً في التاريخ كلِّه ، لقد حافظتِ الانتفاضةُ على معنويةِ المسلمِ وشعورِه بالانتماءِ ، وشعورِه بالعطاءِ ، وكونه يتقّي الله قدْرَ المستطاعِ ، ويبذلُ كلَّ جهدِه في البلاءِ ، هذه الانتفاضةُ جعلَتِ العالَم كلَّه ، وليس العالَم العربيَّ والإسلاميَّ فحسب ؛ يعيدُ حساباتِه ، ويتفهَّم قضيةَ المسلمين ، لقد كانت الانتفاضةُ اختراقاً جيداً للكيانِ الصهيوني ، فمِن خلالِ مشاهدةِ الناسِ للأطفال ، وهم يَتَلَقَّوْن الرصاصَ الحيَّ بصدورِهم ، ورؤوسِهم ، وليس في أيديهم إلا الحجارةُ ، شعروا أنَّ هناك مشكلةً حقيقيّةً ، هؤلاءِ الأطفالُ ما تحرّكوا عبثاً ، وما تصدَّوا لعباً ، فحينما تُسْلَب أرضُ شعبٍ ، وتُنهَب ثرواتُه ، وتُنتهَك حرماتُه ، وتُدَنَّس مقدساته ، وتُداسُ كرامتُه ، وتُقهَر إرادتُه ، وتُفسَدُ عقائدُه ، وتفرغُ قِيَمُه ، ويُزوَّر تاريخُه ، ويُحمَل على الفسادِ والإفسادِ ، وتُمَارَس عليه ألوانُ التجهيلِ والتجويعِ والتعذيبِ على يدِ أعدائِه ، أعداءِ الله ، أعداءِ الحقِّ ، أعداءِ الخيرِ ، أعداءِ الحياةِ ، عندئذٍ لا بدّ لهذا الشعبِ أنْ يتحرّكَ ليستردَّ حقَّه في الحياةِ الحرةِ الكريمةِ .

وكانت الانتفاضةُ فرصةً لتعبيرِ الناسِ عن مشاعرِهم ، ونفضِ الغبارِ عن قلوبهم ، وتجديدِ الولاءِ لدينِهم وأمّتِهم ، وتوحيد همومهم حولَ قضيتهم الكبرى ، والقضاءِ على الاهتماماتِ الجانبيةِ ، والخلافاتِ الجزئيةِ ، ومحاولةِ مخاطبة الأمةِ كلِّها ، ومخاطبةِ العالَمِ مِن ورائِها بالقضيةِ العادلةِ .

وإنّ كلَّ قطرةِ دمٍ تُراقُ مِن طفلٍ فلسطينيٍّ ينبغي أنْ نشعرَ أنها تُمتصُّ مِن أجسادِنا ، ومِن أولادنا ، ومِن أهلِنا ، وأنّ كلَّ شهيدٍ يَذهب هو مِن أقْرَبِ

الناسِ إلينا ، ولا يجوزُ أبداً أنْ يكونَ نَفَسُنَا قصيرا ، حيثُ إنّه إذا طالَ علينا الأمدُ بدأ الناسُ يتساءلون : إلى متى ، ولماذا ؟ ثم بَعْدهَا ينشغلون بهمومهم ، وقضاياهم الخاصةِ ، وأُسَرِهِمْ ، وتجاراتِهم ، ووظائفهم ، ويغفلون عن أولئك المرابطين في الثغورِ على مدى الزمانِ ، وهؤلاء الصبيةُ الصغارُ الذين قاموا بهذا العملِ رفعوا عبئاً ومسئوليةً كبيرةً عن المسلمين في كل مكانٍ ، وتصَدَّوا لواجبٍ لا يستطيع غيرُهم أنْ يتصدّى له ، فكونُهم يلجؤون إلى هذه الوسيلةِ البسيطةِ الساذجةِ العاديةِ التي تدلّ على أنّ الانتفاضةَ انتفاضةٌ عفويةٌ ، انتفاضةُ القهر ، والحرمانِ ، والأذى ، والطغيانِ ، وأنّ الإنسانَ قد وصلَ إلى درجةٍ لا يصبرُ عليها ، فقد بَلَغ السيلُ الزُبَى[١] ، وجاوز الحزامُ الطُّبْيَيْنِ[٢] ، وبلغ السكينُ العظمَ .

لا تَسْقِنِـي مَـاءَ الحَيَـاةِ بِـذِلَّـةٍ بِلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأْسَ الْعَلْقَمِ

أمَا وقد قامَ هؤلاءِ الصغارُ بواجبِهم ، وأَسَالُوا مِن دِمَائِهم ، وبذَلُوا مِن

---

(١) [بلغ السيل الزبى هي جمع زُبْيَة ، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده ، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء ، فإذا بلغها السيلُ كان جارفا مجحفا ، يضرب لما جاوز الحد] ، (مجمع الأمثال (١/ ٩١) .

(٢) [والطُّبْيُ والطِّبْيُ : حَلَمَاتُ الضَّرْع التي فيها اللَّبَنُ من الخُفِّ والظِّلْفِ والحافِرِ والسِّباعِ ، وقيل : هو لذَواتِ الحافِرِ والسِّباع كالثَّدْي للمرأَة ، وكالضَّرْعِ لِغَيْرِها ، والجمعِ من كلّ ذلك أَطْبَاءٌ] ، لسان العرب ، مادة طبي ، [ومنه حديث عثمان : قد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن ، هذا كناية عن المبالغة في تجاوز حدِّ الشر والأذى ، لأن الحزام إذا انتهى إلى الطُّبيين فقد انتهى إلى أبعد غاياته ، فكيف إذا جاوزه] ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١١٥) ، وانظر (مجمع الأمثال للميداني (١/ ١٦٦) .

أَروَاحِهِم ، فإنه لا يَسَعُ المسلمين إلا الإصرارُ على دعمِ هؤلاءِ بكلِّ صُوَرِ الدَّعمِ ، وأنْ نضعَ كلَّ إمكاناتِنا دعماً لا لِقَضيَّتِهم ، بل لِقَضِيَّتِنا ، عَرَباً ومسلمين ، فقضيتُنا أصبحتْ : نكون أو لا نكون ، نكون مجتمعين على الحقِّ ، ولا نكونُ متفرِّقين بالمصالح والأهواء .

* * *

الإرهابُ

يتحدّثُ أعداؤُنا الصهاينةُ عن الإرهابِ ، ولاسيما في هذه الأيامِ ، حيثُ واتَتْهم الظروفُ ، ونحن نقول لهم : إنه مولودٌ خرجَ مِن رَحِمِ الغطرسةِ والظلمِ والاستخفافِ بكرامةِ الشعبِ الفلسطينيِّ ، وثمرةٌ مُرَّةٌ لشجرةٍ غَرَسَهَا الأقوياءُ المستكبرون في نفوس المقهورين .

لقد دخلتِ الانتفاضةُ الفلسطينيةُ تاريخ الجهاد والنضال ، مخلِّفةً الآلاف من القتلى والجرح والمعوقين نسأل اللهَ أنْ يتقبّلَ عملَهم ، وأنْ يحشرَهم مع الشهداءِ والصالحين .

وما زالت المجزرةُ مستمرةً في فلسطينَ ، يصلُ إلى اليهودِ الدعمُ غيرُ المحدودِ ، ويصلُ إلى الفلسطينيين النصحُ بضبطِ النفْسِ ، فَمَن ينسَى مشاهدَ الذبحِ في صبرا وَشاتيلا وقانا ، والتي تَسْتَمْطِرُ دموعَ الصَّخرِ ، فلماذا لم تَحْظَ تلك المآسي بحظّها الحقيقيّ مِنَ الاهتمام كغيرها ؟

تعلِّمُنا الأحداثُ التي نشهدُها كلَّ يومٍ في الأرضِ المحتلة أنّ القوةَ البشريةَ مهما عَظُمَتْ فهي محدودةٌ ، وأنّ العلمَ مهما اتَّسعَ فهو قاصرٌ ، وأنّ الإنسانَ المتغطرسَ مصيرُه القَصْمُ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ،

فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ »[١] .

وفي رواية مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْعِزُّ إِزَارُهُ ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ »[٢] .

إنَّ اعتمادَ القوةِ وحدَها ، والحلولَ الأمنيةَ وحدَها لا يحقِّقُ الهدفَ ما لم يكن مصحوباً بدرجةٍ عاليةٍ من الاستماعِ الجيِّدِ إلى الطرَف الآخر ، وتَفَهُّمٍ دقيقٍ للرأيِ الآخرِ ، ومراعاةِ مصالحِه وخصوصياتِه ، والحفاظ على كرامتِه ، وما لم تُحَلَّ مشكلاتُ المظلومين والمضطهدين في العالَم فإنّ المشكلةَ تبقى قائمةً ، بل وربما تفاقمتْ ، فالقوّةُ لا تصنعُ الحقَّ ، ولكنَّ الحقَّ يصنعُ القوةَ ، والقوةُ مِن دون حكمةٍ تدمِّر صاحبَها ، قال تعالى :

﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] ، فعددُ الذين يغادِرون الأرضَ المحتلةَ خوفاً وهلعاً ، عائدين مِن حيثُ أَتَوْا لاَ يُصَدَّقُ ، فهو يزيدُ عَلى المليون .

لو حددَّنا مفهومَ الإرهابِ فلا يُؤخَذُ المقاوِمُ بالمجرمِ ، ولا الصالحُ بالطالحِ ، ولا المُحِقُّ بالمُبْطِلِ ، ولا يُؤْخَذُ العملُ المشروعُ بالعملِ المحظورِ ؟!

ولو حددَّنا مفهومَ الإرهابِ عندئذٍ تَستفِيدُ الشعوبُ المظلومةُ مِن هذا

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) ، وأحمد (٧٣٧٦) .
(٢) مسلم (٢٦٢٠) .

التحديد ، حيث يصبحُ كلُّ ما هو خارجٌ عن إطارِ مفهومِ الإرهابِ المتَّفَقِ عليه لا يُدرَجُ اسمُه ، ولا يُلاحَقُ على أنه مِنَ الإرهابيين .

ولو حددَّنا مفهومَ الإرهابِ لانتَعَشَتْ حركاتُ التحرُّر في العالَم ـ وما أكثرَها ـ في جهادها ، ونضالها للتحرُّرِ مِن هيمنةِ المستعمرِ ، وطغيانه ، واستعباده .

ولو حددَّنا مفهومَ الإرهابِ ، واتُّفِق عليه بين الطرفين المتنازِعَيْن لامتنعَ القويُّ أنْ يمارِسَ الإرهابَ على أوسعِ نطاقٍ باسم محاربةِ الإرهابِ .

فأعداؤُنا الصهاينةُ لو فَعَلُوا ، وحدَّدوا طبيعةَ الإرهابِ الذي ينبغي أنْ يُدَانَ ويُحارَب لأدَانوا أفعالَهم ، وحاربوا أنفسَهم بأنفسِهم .

فنحن نتحدَّى أعداءَنا الصهاينةَ أنْ يُخرِجوا لنا تعريفاً للإرهاب ، مِن دون أنْ يكونـوا هم أوَّلَ المتلبِّسين به قَبلَ غيرهم ، ومِن دون أنْ يكونوا قد اقتَرفُوه ، ومارسُوه في أقبحِ صُورِه وأشكالِه قَبْلَ غيرِهِم .

إنّ تحديدَ مفهومِ الإرهابِ يُظهِرُ جهادَ ومقاومةَ الشعبِ الفلسطينيِّ ضدَّ الصهاينةِ المعتدين على أنه جهادٌ مشروعٌ ، لا يندرِجُ تحتَ مفهومِ الإرهابِ الممنوعِ ، لأجل ذلك هُم لا يريدون تحديدَ مفهومِ الإرهابِ الذي ينبغي أنْ يُحارَبَ ، ليبقَى ما هو محرّمٌ على غيرهم مباحاً لهم ، وليبقى شعارُ محاربةِ الإرهاب شعاراً مَطَّاطاً يمكِّن الصهاينةَ مِنَ العدوانِ على الفلسطينيّين كلما لاحتْ لهم أهمِّيةُ ذلك بالنسبةِ لأَمْنِهِم ومصالحِهم الذاتيةِ .

إنّ على الذين يتصدَّوْن لما يُسمّونَه إرهاباً أنْ يسألوا أنفسَهم : لماذا يُقْدِمُ هؤلاء الشبانُ على الموتِ ؟ وسيجدُ هؤلاءِ الصهاينةُ أنفسَهم بحاجة إلى وِقفةِ شُجاعةٍ تخلِّصهم مِن مسلسلِ الذُّعْر المنتظرِ ، ومسلسلِ عداواتِ المقهورين .

إنّ نتائجَ الظلمِ لا يمكنُ ضبطُ حساباتِها ، ولا تقديرُ ردودِ أفعالها ، وذلك أنّ ردودَ فعلِ المقهورين والمظلومين كشظايا القنابلِ تطيشُ في كلّ اتّجاهٍ ، وتصيبُ مِن غيرِ تصويبٍ .

إنّ ردودَ أفعالِ المظلومين والموتورين لا يمكنُ التحكُّمُ في مداهَا ولا اتّجاهِها ، وإنها تطيشُ متجاوزةً حدودَ المشروعِ والمعقولِ ، مخترقةً شرائعَ الأديانِ ، وقوانينَ الأوطانِ ، وتَكفُرُ أوّلَ ما تكفرُ بهذه القوانينِ التي لم توفِّرْ لها الحمايةَ أولاً ؛ فلذا لنْ تقبَلَها حاميةً لأعدائِها ، فإنّ العلاجَ الأوّلَ والحقيقيَّ هو نزعُ فَتِيلِ الظلمِ الذي يشحَنُ النفوسَ بالكراهيةِ والمَقْتِ ، ويعمِي البصائرَ والأبصارَ عن تدبُّرِ عواقبِ الأمورِ ، والنظرِ في مشروعيتها أو نتائجها .

وإنّ أَحْرَصَ النّاسِ على حياةٍ ، وهم الصهاينةُ سيَظَلُّون في حيرةٍ عندما يتعاملون مع مَنْ يُلغِي حياتَه مِن حسابِ الأرباحِ ، ويسجِّل نفسَه كأوّلِ رقمٍ في قائمةِ الضحايا .

إنّ أعظمَ ما يملكُه القويُّ أنْ ينهيَ حياةَ الضعيفِ ، فإذا أراد الضعيفُ أن يقدِّمَ أَثْمَنَ ما يملك ، وهي حياتُه لِزَلْزَلَةِ كيانِ القويِّ صارَ هذا الضعيفُ أقوى منه ، وقد قيل : بدأتِ الحربُ بالإنسان ، ثم أصبحتْ بَين آلتين ،

ثم بين عقلين ، ثم انتهتْ بالإنسان .

إنّ الحديثَ عنِ القوةِ النابعةِ مِنَ الضَّعفِ ليس دعوةً إلى الرضى بالضَّعفِ ، أو السكوتِ عنه ، بل هو دعوةٌ إلى استشعارِ القوّةِ حتى في حالة الضَّعف ، إذاً يجب أنْ نبحثَ في كل مظِنَّةِ ضعفٍ عنْ سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلبِ ذلك لوجدوه ، ولصارَ الضَّعفُ قوةً ، لأنّ الضعفَ ينطوي على قوةٍ مستورةٍ يؤيِّدُها اللهُ بحفظه ورعايته ، فإذا قُوّةُ الضَّعفِ تَهُدُّ الجبالَ ، وتدكُّ الحصونَ ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ٤] ، عندئذ ينتزِعُ المسلمون مِن هذا الضَّعفِ قوةً تُحيلُ قوةَ عدوِّهم ضعفاً ، وينصُرهُم اللهُ نصراً مبيناً ، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

هذه الحقائقُ نضعُها بين أيدي إخوانِنا في الأراضي المحتلةِ ، وإننا لنَعجبُ ، ونحن نرى سَفَّاحِي صبرا وَشاتيلا وقانا قد صاروا قادةَ دولٍ ، مع أنّهم يحملون ميدالياتٍ ذهبيةً في الإرهاب .

ولماذا يختارُ إعلامُ الأعداءِ الإرهابَ الذي ينبغي أنْ يهتمّ به المقهورون ، والإرهابَ التي ينبغي أن ينْسَوه ؟ وكأنّ الإرهابَ لا يكون إرهاباً إلا إذا كانَ في اتّجاه مُعَيَّنٍ .

إنّ أعداءَنا الصهاينةَ وهم يطرحون شعاراتِ الحريّةِ والعدلِ وحقوقِ الإنسانِ وغيرها يمارسونها بصورةٍ انتقائيةٍ مصلحيةٍ ، ولا يتعاملون معها كقيمةٍ جوهريةٍ حقيقيةٍ ثابتةٍ إيماناً بها ، بل انتفاعاً منها ، وإنَّ مظاهرَ القوةِ

لا تعني التَّناهِيَ ولا الإحاطةَ ، ولكنَّ غرورَ البشرِ يجهلُ هذه الحقيقةَ ، وتُسكِرُهُ نشوةُ القوة ، فيقول :

﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

[فصلت : ١٥]

فالحذرَ الحذرَ الشديدَ من الوقوعِ في فخاخٍ تُنصَبُ لأبناءِ أُمَّتنا العربيةِ والإسلاميةِ ، قد يوقعهُم فيها ذهولُ الصدمةِ ، أو ثورةُ الحماسِ .

إنّ أكثرَ ما نحتاجُ إليه في أمورٍ كثيرة من حياتنا هو التوازنُ ، والانطلاقُ من الثوابتِ الراسخةِ ، مِن غير أنْ يُفْقِدَنَا التأثُّرُ بالأفعالِ وردودِ الأفعال الرؤيةَ الصحيحةَ ، ولا نحتاجُ إلى كبيرِ عناءٍ لنكتشفَ أنّ كثيراً مِن خطايانا وأخطائِنا كانت نتيجةَ جُنُوحٍ في النظرةِ بعيداً عنِ التوازنِ والاعتدالِ المطلوبِ .

إنّ للمشاعرِ حقَّها في أنْ تَغْلِيَ وتَفُورَ ، أمّا الأفعالُ فلا بدّ أنْ تكونَ مضبوطةً بهديِ المنهجِ الربّانيِّ ، ومقاصدِ الشرعِ وضوابطِ المصلحةِ ، ولا يكون ذلك إلا بالرجوعِ إلى العلماء الربّانيين الورعين ، الذين لا يجاملون مصالحَ الخاصّةِ ، ولا يتملّقون عواطفَ العامّةِ ، وقد كان العلماءُ على تعاقُبِ العصورِ صِمامَ أَمَانٍ عندما تطيشُ الآراءُ ، وتضطربُ الأمورُ ، قال عزوجل :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

[النساء : ٨٣]

ولذا فإنَّ مِن أَعْظَمِ ما يوصَى به في مثلِ هذه الأحداثِ العامّةِ كَبْحَ

جِمَاحِ الانفعالات ، حيث لا تنفع الاجتهاداتُ الخاصّةُ ، بل ربما جنى بعضُها أوّلَ ما يجني على المسلمين ومصالحهم ، وأنْ يكونَ عند المسلمين خاصة مع حرارة الانفعال وشدة التأثر تَبَصُّرٌ في معالجة الأمور ، فينبغي ألاَّ يخرِجَنا التأثُّرُ إلى التَّهَوُّرِ ، ولا الحماس إلى الطَّيْشِ ، وإنّ الحماسَ طاقةٌ فاعلةٌ مُنْتِجَةٌ إذَا وُجِّهَتْ في الطريق الرشيد ، وإنّ العبرةَ ليست بِتَنْفِيسِ المشاعرِ ، وتفريغِ العواطفِ ، ولكنَّ العبرةَ بتحقيقِ المصالحِ ، ودَرْءِ المفَاسِدِ ، فنحن بحاجةٍ ماسّةٍ إلى النقد البنَّاء ، ولكي نكونَ بنَّائين في نقدنا لا بد لنا أنْ نكونَ موضوعيين في تفكيرنا ، والموضوعيةُ تتطَلَّبُ منا أنْ ننظُرَ إلى أيِّ موضوعٍ مِن أكثرَ من زاوية ، وضِمْنَ أكثرَ مِن ظَرْفٍ ، وبالتالي نُحَلِّلُهُ بأكثرَ مِن طريقةٍ ، ونَصِلُ مِنْ ثَمَّ إلى أكثرَ من احتمالٍ ، أو على الأقلِّ للاحتمالِ الأقربِ إلى الصحةِ ، أو الاحتمالِ الأفضلِ ، وعندما نقول : نقد بناء ، ورأي موضوعي ، فهذا يعني بالضرورة النَّظَرَ بصورةٍ متكاملةٍ للقضايا حيث نرى الإيجابيات كما نرى السلبيات ، وبذلك نتمكَّن مِن زيادةِ الإيجابياتِ على حسابِ السلبياتِ ، وهذا هو جوهرُ أيِّ تطويرٍ ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

* * *

زلزالُ آسيا

في زحمةِ الأحداثِ وتسارعِ المتغيّراتِ ، وفي خِضَمّ تداعياتِ النوازلِ والمستجدّاتِ ، وكثرةِ الأطروحاتِ والتحليلاتِ يلحظُ المتأمّلُ الغيورُ غياباً أو تغييباً للرؤيةِ الشرعيةِ ، والنظرِ في فقهِ السننِ الكونيةِ ، حتى حصلَ من جرّاءِ ذلك ضلالُ أفهامٍ ، وتشويشٌ وحيرةٌ عند كثيرٍ مِن أهلِ الإسلامِ .

الماءُ نعمةٌ ونقمةٌ ، يريده اللهُ أن يكونَ نعمةً فيكونُ نعمةً ، ويريده اللهُ أنْ يكونَ نقمةً فيكونُ نقمةً .

مِن النعمِ العظيمةِ التي مَنَّ اللهُ تعالى بها على الإنسانِ نعمةُ الماءِ العذبِ ، فالماءُ العذبُ أفضلُ شرابٍ ، وأعظمُ صدقةٍ ، ورحمةُ الله لخَلقِه ، وحيث وُجِدَ الماءُ وُجِدَتِ الحياةُ .

قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

إنَّ الحياةَ على وجهِ الأرضِ ؛ حياةَ الإنسانِ ، وحياةَ الحيوانِ ، وحياةَ النباتِ ، قوامُها الماءُ ، فالماءُ هو الوسيطُ الوحيدُ الذي يحملُ الأملاحَ ، والموادَّ الغذائيةَ منحلةً فيه إلى الكائنِ الحيِّ ، ولولا الماءُ لَمَا كانت حياةٌ على وجهِ الأرضِ .

لذلك يتفضّل اللهُ به علينا ، فيهطلُ في كلِّ ثانيةٍ مِن السماءِ إلى الأرضِ

على مستوَى الكرةِ الأرضيةِ ستة عشر مليونَ طنٍّ مِن الماءِ .

ويشكِّلُ الماءُ سبعين بالمئة من مساحةِ اليابسةِ ، وسبعين بالمئة من وزنِ الإنسانِ ، كما أنّ للماءِ دوراً كبيراً في سيرِ التفاعلاتِ الكيميائيةِ داخلَ أجسامِ النباتاتِ ، والحيواناتِ ، والإنسانِ ، وذلك من أجلِ الحصولِ على الطاقةِ .

وللماءِ دورٌ في تغيُّرِ سطحِ الأرضِ مِن القوامِ الصخريِّ إلى القوامِ الترابيِّ من خلالِ عملياتِ الحتِّ .

ولقد ذكرَ اللهُ تعالى الماءَ في القرآنِ الكريمِ منكّراً « ماء » ثلاثاً وثلاثين مرةً ، وذكره معرّفاً « الماء » ست عشرة مرةً .

وذكرَ اللهُ تعالى أنّ إنزالَه الماءَ من السماءِ ، وإحياءَه الأرضَ بعدَ موتِها هو دليلٌ وآيةٌ على وجودِه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وينبغي أن يكونَ موقفُ المؤمنِ من الماءِ كما وردَ في الحديثِ القدسيّ الصحيحِ عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنْ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : بِنَوْءِ كَذَا

وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ »[١] .

إنّ مِن آياتِ اللهِ الدالّةِ على عظمتِه هذه الملوحةَ التي نجدُها في البحارِ ، حيث يقول العلماءُ : « إنّ في كل لترٍ واحدٍ مِن ماءِ البحرِ سبعةً وعشرين غراماً مِن المِلحِ ، وإنَّ العالَمَ بأَسْرِه يستهلكُ في السنةِ ما يزيدُ على خمسين مليونَ طنٍّ مِن مِلحِ البحرِ ، وإنّ نسبةَ الملحِ في مياهِ البحرِ تعادلُ ثلاثةً ونصفًا بالمئة مِن مجموعِ مياهِ البحرِ ، بل إنَّ في الكيلومترِ المكعَّب ، (وهو مكعبٌ ضلعُه كيلو متر) من مياهِ البحرِ أربعةً وثلاثين مليون طنٍّ مِن الملحِ .

لو استُخرِجَ ملحُ البحارِ وجُفِّفَ ، ووُضِعَ على اليابسة ـ على قارّاتها الخمسِ ـ ولم نغادرْ مكاناً إلا وفَرَشْنَا عليه هذا الملحَ الذي استخْرَجْناهُ مِن مياهِ البحارِ ، لبلَغَ ارتفاعُ الملحِ المجفَّفِ على سطحِ اليابسةِ كلِّها مئةً وثلاثةً وخمسين متراً .

ووصفَ اللهُ الماءَ على أنه مباركٌ ، أي : إنّه كثيرُ الخيرِ ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق : ٩] .

وامتنّ اللهُ على المؤمنين أنْ أنزلَ عليهم الماءَ الذي فيه قوامُ حياتِهم ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ـ١١] .

---

(١) البخاري (٨١٠) ، ومسلم (٧١) عن زيد بن خالد الجهني .

وذكرَ اللهُ إحدى فوائدِ الماءِ الكبرى ، وهي التطهير ، قال تعالى : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾

[الأنفال : ١١]

وأمَرَنا اللهُ بالوضوءِ بالماءِ عند كلّ صلاةٍ ، والاغتسالِ بالماءِ عند كلّ جنابةٍ ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ ﴾ [المائدة : ٦] .

وقد أمَرنا رسولُ الله ﷺ بالاقتصادِ في استعمالِ الماءِ ، وعدمِ الإسرافِ فيه ، فقد مَرَّ بِسَعْدٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَتَوَضَّأُ ، فَقَالَ : « مَا هَذَا السَّرَفُ يا سعد ؟ فَقَالَ : أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ »[١] .

وعن أبي الدرداء « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِنَهْرٍ وَمَعَهُ قَعْبٌ ـ أي : إناءٌ ـ فَتَوَضَّأَ ، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ فَرَدَّهَا فِي النَّهْرِ ، وَقَالَ : يُبَلِّغُهُ اللهَ قَوْمًا يَنْفَعُهُمْ بِهِ »[٢] .

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنّ التصدّقَ بسقي الماءِ أفضلُ الصدقةِ ، فعن سعدٍ رضي اللهُ عنه أنّه أتى النبيَّ ﷺ فقال : « أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْجَبُ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : المَاءُ »[٣] .

---

(١) ابن ماجة (٤٢٥) عن عبد الله بن عمرو .

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٤٦٩) عن أبي الدرداء .

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٩) .

وقد بيّن النبي ﷺ فقال : « الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلاَثٍ : الْمَاءِ ، وَالْكَلإِ ، وَالنَّارِ »(١) .

وقد نهى النبيُّ ﷺ عن تلويثِه ، إذْ نهى عن البولِ في الماءِ الراكدِ ، فعَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ « نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّاكِدِ »(٢) .

وقد نهى عن التعذيبِ بالحرمانِ من الماء .

وقد يكون تقتيرُ الماءِ على الناسِ عقاباً لهم ، قال تعالى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٦ـ١٧] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

وممّا يؤكدُ أنّ تقتيرَ الأمطارِ لا يمكنُ أنْ يكونُ تقتيرَ عجزٍ كتقتيرِ البشرِ ، ولكنه تقتيرُ تربيةٍ وتأديبٍ ، فقد ورد عن وكالةُ الفضاءِ الأوروبيةُ أنَّ مرصدَ الفضاءِ الأوربيَّ العاملَ بالأشعةِ تحتَ الحمراءِ رصدَ غيمةً مِن البخارِ في الفضاءِ الخارجيِّ ، يمكنُ لها أنْ تملأَ محيطاتِ الأرضِ ستينَ مرةً في اليوم الواحدِ بالمياهِ العذبةِ وهذا مصداقُ قولِ اللهِ تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] .

وأما معنى التقتيرِ التربويِّ أو التأديبيِّ ففي قولِه سبحانه :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ .

---

(١) أبو داوود (٣٤٧٧) ، ابن ماجه (٢٤٧٢) .

(٢) مسلم (٢٨١) .

ومن خصائصِ الماءِ التي تدلّ على علمِ اللهِ ورحمتِه بالإنسانِ :

١ ـ أن البناءَ الذريَّ الفريدَ للماءِ يجعلُ جزيئاتِه مترابطةً بعضُها ببعضٍ في شبكةٍ فراغيةٍ متماسكةٍ ، ولولا هذا لاستحالَ وجودُ الماءِ على شكلِ سائلٍ وصلبٍ على سطحِ الأرضِ ، ولاستحالت الحياةُ .

٢ ـ مِن المعلومِ أنّ درجةَ غليانِ الماءِ مرتفعةٌ ، وذلك لقوةِ ترابطِ ذرّاتِه ، لذلك فهو يمتصُّ قدرةً حراريةً كبيرةً لكي يتبخَّرَ ، وإنّ كلَّ غرامٍ من الماءِ السائلِ يحتاجُ إلى خمسمئة وأربعين حريرةً ، ليتحوّلَ إلى بخارٍ ، وهذه الخاصةُ تعطي الماءَ دوراً فريداً في نقلِ القدرةِ من مكانٍ إلى آخر ، فالماءُ الذي يتبخّرُ من المحيطاتِ تسوقه الرياحُ مئاتِ ، بل وبضعَ آلافٍ من الكيلومترات إلى أماكنَ باردةٍ ، فعند تبرُّدِ البخارِ وتحبّبه وتساقطِه على شكلِ قطراتِ مطرٍ ينشرُ معه الطاقةَ التي امتصَّها في أثناءِ تبخُّرِه ، فيساهمُ في رفعِ درجةِ الحرارةِ في تلك المناطقِ ، وتلطيفِ حرارةِ الجوِّ ، والجديرُ بالذِّكرِ أنه يتبخّرُ كلَّ عامٍ خمسمئة وعشرون ألفَ كيلو متر مكعبٍ من الماءِ .

٣ ـ وهناك خاصّةٌ فريدة أخرى للماء ، تتمثَّلُ في أنه كأيّ عنصرٍ يتمدّدُ بالحرارةِ ، وينكمشُ بالبرودةِ ، لكنه في الدرجةِ أربعٍ فوق الصفرِ تنعكسُ هذه القاعدةُ المطّردةُ في كلّ العناصرِ في الأرض ، فيتمدّدُ بالتبريدِ بدلَ أن ينكمشَ ، فتقلّ كثافتُه في أثناءِ تجمّدِه فيطفو على سطحِ الماءِ ، وربما لا يكاد الإنسانُ يُصدِّقُ أنّ حياةَ الكائناتِ على سطحِ الأرضِ متوقِّفةٌ على هذا الاستثناءِ من قانونِ الانكماشِ بالتبريدِ ، ولولا هذا الاستثناءُ لتجمّدت

البحارُ ، وانعدم التبخّرُ ، وتوقفت الأمطارُ ، ويبسَ النباتُ ، وهلكَ الحيوانُ ، وانتهت حياةُ الإنسانِ .

٤ ـ الماءُ يرتفعُ بنفسِه في الأوعيةِ الشعريةِ في الأشجارِ ، وتُعرفُ هذه الخاصّةُ بالخاصّةِ الشعريةِ ، فيحملُ الماءُ من خلالها الغذاءَ إلى الخلايا النباتيةِ حتى ارتفاعاتٍ عاليةٍ ، كما أنها هي المسؤولة عن تحريكِ الماءِ في المساماتِ والفراغاتِ والأقنيةِ والشقوقِ الدقيقةِ في التربةِ والصخورِ نحو الأعلى ، ممّا يسهِّلُ على جذورِ النباتاتِ الحصولُ على الماءِ في المناطقِ الجافّةِ والصحراويةِ .

٥ ـ يُعدُّ الماءُ من أقوى العناصرِ المُذيبةِ ، وهذه الخاصّةُ أساسيّةٌ في كونِ الماءِ المطهِّرَ الأولَ ، والمذيبَ في الأرضِ .

هذا عن كونِ الماءِ نعمةً ، فماذا عن كونِه نقمةً ؟

أفاق العالَم يومَ الأحدِ الواقعِ في السادسِ والعشرين من الشهرِ الأخيرِ من العامِ المنصرمِ على حدثٍ لم يسبق أنْ وقعَ مثلُه منذ ثلاثمئة عامٍ تقريباً ، وهو زلزالُ آسيا ، فالأضرارُ التي نتجت عنه تفوقُ حدَّ الخيالِ ، وهذا الزلزالُ يعدّ واحداً من أكبرِ التحوّلاتِ في القشرةِ الأرضيةِ ، فهناك القاعدةُ الصخريةُ الصلبةُ للأرضِ التي ترتكزُ عليها القاراتُ والمحيطاتُ ، هذه القاعدةُ الصخريةُ للأرضِ فيها صدوعٌ قسمَتْها إلى اثني عشر لوحاً ، قال تعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الطارق : ١٢] .

لقد تصادمَ اللوحُ الصخريُّ الذي ترتكز عليه قارةُ آسيا ، مع اللوحِ

الصخريِّ الذي ترتكزُ عليه قارةُ أسترالية ، وهذا التصادمُ أدّى إلى تزحزحِ الألواحِ الصخريّةِ التي هي القاعدةُ الصلبةُ للكرةِ الأرضيةِ ، فاختفت جزرٌ ، وظهرت جزرٌ ، وانشطرت جزرٌ ، تحركت جزيرةُ سومطرة ، ومساحتُها أكبرُ من مساحةِ سورية ، وهي أقربُ النقاطِ إلى موقعِ الزلزالِ ، وأكثرُها تأثّراً به ، تحركت عن موقعِها تجاهَ الجنوبِ بنحو ثلاثين كيلومتراً ، وقصر اليوم أجزاء من الثانية ، واهتزت الأرضُ حول محورِها ، وقد قُدِّرت قوّةُ هذا الزلزالِ التفجيريةُ بمليون قنبلةٍ ذريةٍ ، وريختر عالِمُ الزلازلِ المعروفُ مقياسُه تسعُ درجاتٍ ، فكانت قوةُ هذا الزلزالِ بمقياس ريختر تسعَ درجاتٍ وثمانيةَ أعشارِ الدرجةِ ، وهي فوق النهايةِ العظمى لمقياسه .

أمّا أمواجُ المدِّ البحريّ التي نتجَتْ عن هذا الزلزالِ فقد سارت من المحيطِ الهادي إلى المحيطِ الهندي بسرعةٍ تقتربُ من ألفِ كيلو مترٍ في الساعةِ ، وقد قطعت ألفاً وستمئة كيلومترٍ في ساعةٍ ونيّف ، وتناقصت سرعتُها إلى سبعين كيلو متراً عند الشواطئ ، وكأن هذا المدَّ خرجَ من أعماقِ المحيطِ الهادي مستهدفاً شواطئ المحيطِ الهندي ، لحكمةٍ أرادها اللهُ لا تخفى عن العقلاءِ ، ولو أنه انطلق قريباً من اليابسةِ لهلك من بني البشرِ الملايين ، وهذا مِن لطفِ الله جلّ جلاله ، وقد بلغ ارتفاعُ أمواجِ هذا المدِّ من عشرةِ أمتارٍ إلى أربعين متراً ، حيث إن هذه الأمواجَ قادرةٌ على أن تقتلعَ صخرةً تزنُ عشرين طناً ، وتحملها مسافةً طويلةً ، وهي قادرةٌ على إغراقِ ناقلاتِ النفطِ ، وهي من البواخرِ العملاقةِ ، وتحطيمِ القطاراتِ وسككِ الحديد ، وتحطيمِ السفن ونقلِها وتجميعِها في

اليابسةِ ، وبعضُها استقرَّ على أسطحِ المنازلِ ، وأمواجُ هذا المدّ قادرةٌ على اقتلاعِ الجسورِ ، والإطاحةِ بالمنشآتِ ، وتدميرِ المدنِ بأكملِها ، والجديرُ بالذِّكرِ أنّ سواحلَ هذه البلادِ التي تضرّرت بهذا الزلزالِ من أجملِ السواحلِ في العالَم ، فالطبيعةُ هناك ساحرةٌ ، والجوُّ دافىءٌ في الشتاءِ ، وصالحٌ للسباحةِ والتعري ، وجميعُ المتعِ الحسيةِ التي تحرمها التشريعاتُ السماويةُ والأرضيةُ متوافرةٌ هناك ، والمنشآتُ السياحيةُ هناك من فئة العشرِ نجومٍ التي تليق بصفوةِ أغنياءِ العالَمِ ، وقد رأى نزلاءُ هذه المنشآتِ هذه النجومَ العشرَ ظهراً في أثناء الزلزالِ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾[يونس : ٢٤ـ٢٥] .

ويُتوقّعُ أنْ يصلَ عددُ القتلى من البشرِ الذين تُكتَشفُ جثثُهم تباعاً إلى مئتي ألفِ جثّةٍ ، وبعضُهم يتوقّع أنْ يصلَ العددُ إلى ثلاثمئة ألفٍ ، بل إنّ هناك مَن يتوقّع أنْ يصلَ العددُ إلى خمسمئة ألفٍ ، عدا الذين يحتاجون إلى إسعافٍ أوّليٍّ خلالَ أيامٍ معدودةٍ ، وعدا خمسة ملايين مشرّدٍ الذين دمّرَ الزلزالُ مساكنَهم ، والذين لا يجدون الماءَ الصالحَ للشربِ ، ولا الغذاءَ ، ولا الدواءَ ، ولا المأوى ، ويُتوقّع أن يموتَ مثلُ هذا العددِ ـ لا سمح اللهُ ولا قدّر ـ عن طريقِ الأوبئةِ الناتجةِ عن تفسّخِ الجثثِ .

وقد قُدِّرتْ الخسائرُ الماديةُ الأوليّةُ بخمسين مليار دولارٍ ، ولا يمكن

أنْ تستعيدَ هذه البلادُ الذي دمّرها الزلزالُ نشاطَها السياحيَّ قبل عشرِ سنواتٍ قادمةٍ .

هذا الإلهُ العظيمُ يُعصَى ؟! ألا يُخطَبُ ودُّه ؟! ألا تُرجى جنّتُه ؟! ألا تُتّقَى نارُه ؟! .

لكنّ الذي يَلفت النظرَ في هذا الزلزالِ أنه لم يُعثَر بعد مُضِيّ اثني عشر يوماً على بدء الزلزالِ ، لم يُعثَر على جثّةِ حيوانٍ بريٍّ واحدٍ على الشواطىءِ التي تضرّرت بالزلزالِ ، وقد نقلتْ هذا الخبرَ إذاعةٌ عُرِفَت بالدقةِ العلميةِ ، ويؤكّد ذلك أنّ أهلَ قريةٍ من قرى السواحلِ التي تضرّرت بالزلازلِ نجوا بأكملهم من الهلاك بسببِ أنهم رأوا البهائم تنطلقُ مذعورةً قبل وقوعِ الزلزالِ فقلّدوها فنجَوا .

ما تعليلُ ذلك ؟ يقولُ علماءُ الأحياءِ : « إنّ اللهَ جلّ وعلا زوّد معظمَ البهائمِ بحاسّةٍ سادسةٍ تشعرهم بالزلزالِ قبل وقوعِه بوقتٍ كافٍ للنجاةِ منه ، هذا من الناحيةِ الفيزيولوجيةِ للحيوانِ ، أمّا من الناحية الإيمانيةِ فالحيوانُ غيرُ مكلَّفٍ كالإنسانِ ، ولا علاقةَ له بالفسادِ في الأرضِ ، فهو لا يقيمُ حياتَه على قتلِ الآخرين ، ولا يبني غناه على إفقارِ الآخرين ، ولا يبني عزَّه على إذلالِ الآخرين ، والحيواناتُ القويّةُ تأكلُ حتى تشبعَ ، فإذا شبعت سمحتْ للآخرين أنْ يأكلوا ، فهي لا تسعى لإفقارِ الآخرين ، ولا لإضلالِهم ، ولا لإفسادِهم ، ولا لإذلالِهم ، ولا لإبادتِهم .

أمّا في بلادٍ قويّةٍ تمت الهجرةُ إليها ، ويتحدث أولو الأمرِ فيها كثيراً عن الحريةِ ، فقد تمّ إبادةُ الملايين مِن سكانِها الأصليين قبل مئتي عامٍ ، ولو كان للحيواناتِ هيئةُ أممٍ لمَا أكلتْ أممُهم القويّةُ حقوقَ أممِهم

الضعيفةِ ، ولو كان للحيواناتِ مجلسُ أمنٍ لمَا فُرضَ الحصارُ الاقتصادي على بعضِ الشعوبِ المقهورةِ حتى يموتَ الناسُ من الجوعِ ، إرضاءً لمَن يملكُ حقَّ النقضِ في المجلسِ ، والحيواناتُ لا تعرفُ التطهيرَ العرقيَّ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ ، وَلاَ يَدْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ »[1] .

وفي مجتمعِ الحيوانِ لا تجدُ حيواناً يذوبُ قلبُه في جوفِه مما يرى ، ولا يستطيعُ أن يغيِّرَ ، إنْ تكلّم قتلوه ، وإن سكتَ استباحوه ، ولا تعرفُ هذه الحيواناتُ تجارةَ الرقيقِ الأبيضِ ، ففي كلّ عامٍ تُقتنصُ سبعمئة ألف امرأةٍ من البلادِ الناميةِ لتعملَ في الدعارةِ في البلادِ المتقدمةِ ، إرضاءً لنزواتِ أغنيائِها ، والحيواناتُ لا تعرفُ الشذوذَ الجنسيَّ ، كما في بلادٍ يقصدها أغنياءُ العالمِ للاستجمامِ ، ويهيأُ لهم في هذه المنتجعاتِ ثمانمئة ألف طفلٍ للفجورِ بهم ، وفي بلدٍ يعتمدُ في الدرجةِ الأولى على تصديرِ الأغنامِ إلى شتى بقاعِ الأرضِ تمّ إعدامُ عشرين مليونَ رأسٍ من الغنمِ رمياً بالرصاصِ ، وتمّ دفنُها ؛ حفاظاً على السعرِ المرتفعِ الذي يحقّقُ لتجّارِ الأغنامِ هناك ربحاً فلكياً .

والحيواناتُ لا تعرفُ إتلافَ كمياتٍ من الزبدةِ يصلُ حجمُها إلى حجمِ أكبرِ أهراماتِ مصرَ حفاظاً على السعرِ المرتفعِ .

والحيواناتُ لا تعرفُ إتلافَ المحاصيلِ الزراعيةِ حفاظاً على أسعارِها المرتفعةِ ، وتسميمها خوفاً من أن يأكلها الفقراءُ مجاناً ، فيقلّ الطلبُ على

---

(١) مسلم (٢٩٠٨) .

شرائها ، وفي المقابلِ هناك شعوبٌ فتكت بها المجاعاتُ ، وهم في أمسّ الحاجةِ إلى اللحومِ والألبانِ والمحاصيلِ .

والحيواناتُ القويةُ لا ترسلُ نفاياتِها الذريةِ إلى الحيواناتِ الضعيفةِ حتى تسبّب لها الأمراضَ السرطانيةَ بشكلٍ وبائيٍّ لآلافِ السنين .

والحيواناتُ التي تصنعُ الأدويةُ لا تجربها على حيواناتٍ مِن جنسِها فتدرأ بها الخطرَ عن نفسِها .

قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم : ٤١] .

يقولُ الإمامُ عليّ رضي الله عنه : « رُكِّبَ الملَكُ من عقلٍ بلا شهوةٍ ، ورُكِّبَ الحيوانُ من شهوةٍ بلا عقلٍ ، ورُكِّبَ الإنسانُ مِن كِلَيْهما ، فإذا سمَا عقلُه على شهوتِه أصبحَ فوقَ الملائكةِ ، وإنْ سمت شهوتُه على عقلِه أصبحَ دونَ الحيوانِ » .

إنّ الإنسانَ غزا الفضاءَ ، وغاص في الأعماقِ ، وحوّل الناراتِ الخمسَ عن طريقِ الاتصالاتِ إلى قريةٍ ، ثم إلى بيتٍ ، ثم إلى غرفةٍ ، ثم إلى سطحِ مكتبٍ .

إن هذا الإنسانَ الذي صنعَ مُدُنًا ومعاملَ ومطارات ، وسفنًا تمخرُ عبابَ المحيطاتِ ، وصنع طائراتٍ أسرعَ من الصوتِ ، وصنع قطاراتٍ تحملها وسائدُ هوائيةٌ ، وصنع الحاسوبَ الذي يقرأ بلايينَ الحروفِ في الثانيةِ ، واخترع الإنترنت التي حيث أزالت السدودَ والحدودَ بين الشعوبِ والحضاراتِ .

هـذا الإنسـان الـذي أرسـلَ الأقمـارَ الصنـاعيّـةَ ، وصنـعَ القنـواتِ الفضائيةَ ، وصنعَ القنابلَ الذريةَ ، والنوويةَ ، والحراريةَ ، وصنع القنابلَ التي تعطّل الاتصالاتِ ، والقنابلَ التي تعطّل الطاقاتِ ، وصنع القنابلَ العنقوديةَ ، والانشطاريةَ ، والذكيةَ ، والخارقةَ الحارقةَ . . هذا الإنسانُ الذي صنعَ كلَّ ذلك لا يستطيعُ أنْ يتنبّأ بوقوعِ الزلزالِ ولا قبلَ ثانيةٍ واحدةٍ إلاّ إذا تنبّه إلى اختفاءِ الحيواناتِ ، فلعلّها ترشدُه من خلالِ اختفائها إلى الخطرِ الداهمِ الذي سيدمّرُه .

قال تعالى :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

[البقرة : ٢٥٥]

ولا يَسَعُنَا في هذا البلدِ الطيّبِ إلاّ أن نتوجّهَ إلى أُسَرِ الضحايا مِن كلّ الملَلِ والنِّحَلِ ، ودونَ تفريقٍ ، ولاسيّما سكان البلادِ الأصليين بالتعازي الحارّةِ ، سائلين اللهَ جلّ وعلا أنْ يُلهِمَ مَن بَقيَ مِن هذه الأُسَرِ الصبرَ والسلوانَ .

إنّ مِن الخطإِ الكبيرِ أنْ يتوهّمَ الإنسانُ أنّ كلّ مَن أهلكه اللهُ في هذا الزلزالِ مذنبٌ يستحقّ الهلاكَ ، هذا تعميم ، والتعميمُ مِن العمى ، فكلٌّ يموتُ على نيته ، وعلى ما عاش عليه ، يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشةَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَنْزَلَ سَطَوَاتِهِ ـ قهره وبطشه ـ عَلَى أَهْلِ نِقْمَتِهِ ، فَوَافَتْ آجَالَ قَوْمٍ صَالِحِينَ ، فَأُهْلِكُوا بِهَلاَكِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

فهذا المصاب الجلل الذي أصاب سكان السواحل في جنوبي شرقي آسيا ، هو ابتلاء للمؤمنين ، وما أكثرهم ، قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٦] .

وهو عقاب للمذنبين ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود : ١٠٢] .

وهو تحذير وإنذار للناجين من غير المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد : ٣١] .

ولكنْ إنصافاً للحقيقةِ ينبغي أنْ نذكرَ أنه في أثناءِ طوفان الظلمِ والقتلِ اليومي للأبرياءِ أو اعتقالِهم ، وهدمِ المنازلِ ، ونهبِ الأموالِ ، هذا الظلمُ اليوميُّ الحادُّ لم يشهد تاريخُ البشريةِ له مثيلاً ، في المناطقِ الساخنةِ مِن العالَمِ ، ولاسيّما في العراقِ وفلسطينَ ، جاء زلزالُ آسيا ليوقظَ الشعورَ الإنسانيَّ لدى الأممِ والشعوبِ ، فبادرت إلى تقديمِ المساعداتِ العينيةِ والماليةِ من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ ، وساهم بلدُنا الطيبُ أيضاً في هذا العملِ الإنسانيِّ ، وأكدت هذه المساعداتُ أنّ الإنسانَ هو الإنسانُ ، كما فطره اللهُ ، وأن الإنسانَ أخو الإنسانِ ، وأنّ الخَلْقَ كلّهم عيالُ اللهِ ، وأحَبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله .

المدخلُ الأوّلُ لفهمِ هذا الحدثِ

لو أنّ سائق سيارةٍ ، في أثناءِ قيادته لسيارته رأى تألّقَ ضوءٌ أحمرٌ في

لوحةِ البياناتِ التي أمامه ، فالمشكلةُ ليست في تصديقِ التألُّقِ ، أو عدمِ تصديقِه ، لقد رأى تألُّقَ هذا الضوءِ بأمِّ عَيْنِهِ ، ولكنّ المشكلةَ في فَهْمِ هذا التألُّقِ ، وتحليلِه ، والسلوكِ الذي يُبنَى على هذا الفَهْمِ والتحليلِ ، فلو فَهِمَ التألُّقَ على أنّه ضوءٌ تزيينيٌّ ، فتابَع السَّيْرَ ، فاحترقَ المحرِّكُ ، وتكلّفَ لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطّل السيرُ ، وأُلغِي الهدفِ ، أمّا إذا فَهِم هذا التألّقَ على أنه ضوءٌ تحذيريٌّ أوقفَ السيَّارةَ ، وأضافَ الزيتَ ، وسلِمَ المحرِّكُ من الاحتراقِ ، وتابَعَ بَعْدَ ذلك السَيْر ، وتحقق الهدف ، فالعبرةُ لا في التصديقِ وعدمِه ، بلْ في فَهْمِ الحدثِ وتحليلِه .

فإذا كان زلزالُ آسيا الضوءَ الأحمرَ فالمشكلةُ ليست تصديقَ وقوعه أو عدمَ التصديق ، فما من إنسانٍ من ستة آلافِ مليونٍ إلا وقد علم بهذا الزلزالِ ، وشاهدَ صورَه المأساويةَ ، ولكن المشكلةَ في فهمِه في ضوءِ الإيمانِ بالله ، وفي ضوءِ وحيِ السماءِ ، لا من خلالِ العولمةِ والشركِ ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزمر : ٤٥] .

أي : إنك إذا قدّمتَ تحليلاً إيمانياً توحيدياً وَفقَ كتابِ الله وسنّةِ رسولِه ، رَفَضَه الذين لا يؤمنون بالآخرةِ ، أمّا إذا قدّمتَ تحليلاً أرضياً شركياً قَبِلَه معظمُ الناس .

مدخلٌ آخرُ لفهمِ هذه الأحداثِ

يقولُ سيّدُنا سعدُ بن أبي وقّاصٍ رضي الله عنه : « ثلاثةٌ أنا فيهن رجلٌ

ـ أي : بطلٌ ـ وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناسِ ؛ ما صلّيتُ صلاةً فشغلتُ نفسي بغيرها حتى أقضيَها ، ولا سمعتُ حديثاً من رسول الله ﷺ إلاّ علمتُ أنه حقٌّ من اللهِ تعالى ، ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغيرِ ما أقول حتى أنصرفَ منها .

ولنأخذ الثالثة : « ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغيرِ ما أقول حتى أنصرفَ منها » ، فإذا كان هذا الميتُ في النعشِ يقول بِلُغةِ الحال لا بِلُغةِ المقالِ ، ويسمعه سيدنا سعدٌ بأذنِ الحال ، لا بأذنِ المقالِ . . . فماذا يقول هذه الزلزالُ بلسانِ الحالِ لبني البشرِ ؟

ينادي هذا الزلزالُ **أهلَ الأرضِ** ، فيقول : إذا كان كلُّ هذا الهولِ الذي وقع إنما هو زلزالُ الدنيا ، فماذا أعددتم أيّها البشرُ للنجاةِ من زلزالِ الآخرة ؟ ويذكّرُهم بقولِه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ [الحج : ١ـ٢] .

امرأةٌ حملت رضيعَها ، وانطلقتْ من البيتِ مذعورةً إلى الشارعِ ، وفي الشارعِ نظرتْ إلى رضيعِها ، فإذا هو حذاءُ زوجِها ، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : ٢] .

وينادي هذا الزلزالُ **المحبَطين** من المسلمين ، الذين استسلموا ، وخضعوا واستكانوا لقوى البغي والعدوانِ ، ويئسوا من رحمةِ الله ، ظنوا أنّ اللهَ تخلّى عنهم ، ولن ينصرَهم ، يذكّرُهم بقولِه تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩ـ١٤٠] .

ويقول أيضاً :

﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وينادي هذا الزلزالُ الغافلين ، الذين غفلوا عن وعيدِ الله ، وغفلوا عن الموتِ ، وغفلوا عن الدارِ الآخرةِ .

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] .

ويذكِّرُهم بقولِه تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل : ٤٥] .

يصفُ أحدُ السائحين الناجين غفلتَه فيقول : فجأةً سمعتُ صوتاً مخيفاً ، ثم فجأةً ابتدأَ الماءُ يتسرّبُ من تحتِ بابِ الغرفةِ ، وفي أقلَّ من دقيقةٍ وصلَ الماءُ إلى صدري ، ثم غبتُ عن الوعيِ ، وهكذا الساعةُ لا تأتيهم إلا بغتةً .

وينادي هذا الزلزالُ المتخاذلين عن الإصلاحِ الاجتماعيِ ، وعن الدعوةِ إلى الخيرِ ظنًّا منهم أنّ صلاحَهم الفرديَّ يعذرُهم أمامَ الله ، وينقذُهم من العقوباتِ الدنيويةِ والأخرويةِ ، يذكّرهم بقولِه تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : ١١٧] .

فالضمانُ أن نكونَ مصلحين ، لا أن نكون صالحين .

وينادي هذا الزلزالُ **المتحرِّرين** ، الذين شوّهوا معنى الحريةِ ، وظنّوها تفلتاً من كلِّ قيدٍ أخلاقيٍّ ، ومن كلِّ قيدٍ دينيٍّ شرعيٍّ ، ومن كلِّ قيدٍ اجتماعيٍّ ، فيؤكِّد لهم أنّ الفسادَ يغرقُ سفينةَ المجتمعِ ، ويهدِّدُ أمنَ الجميعِ ، فالعذابُ إذا نزلَ لا يستثني ، ويذكّرُهم بقولِه تعالى :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وينادي هذا الزلزالُ **المترَفين** ، الذين كان الناسُ لهم تَبَعاً ، أُمِروا أنْ يستقيموا ففَسقُوا ، فدمّرهم اللهُ ، ودمّر مَن أعانهم على فسادهم وإفسادهم من التابعين لهم ، ويذكّرهم بقولِه تعالى :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الإسراء : ١٦ـ١٧] .

وينادي هذا الزلزالُ **الدولَ** التي لم تعبأْ بشرائعِ السماءِ ، والتي توهّمتْ أنّ السياحةَ الجنسيةَ أقصرُ طريقٍ لِجَنْيِ الأرباحِ ، وتكديسِ الثرواتِ ، حيث افتخرَ أحدُ المسؤولين عن السياحةِ في تلك البلادِ قبل أيامٍ من الزلزالِ ، بأنه لا يوجدُ في بلده فتاةٌ عذراء واحدةٌ ، والزلزالُ يذكّرهم بقولِه تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ ﴾ [النور : ٣٣] .

* * *